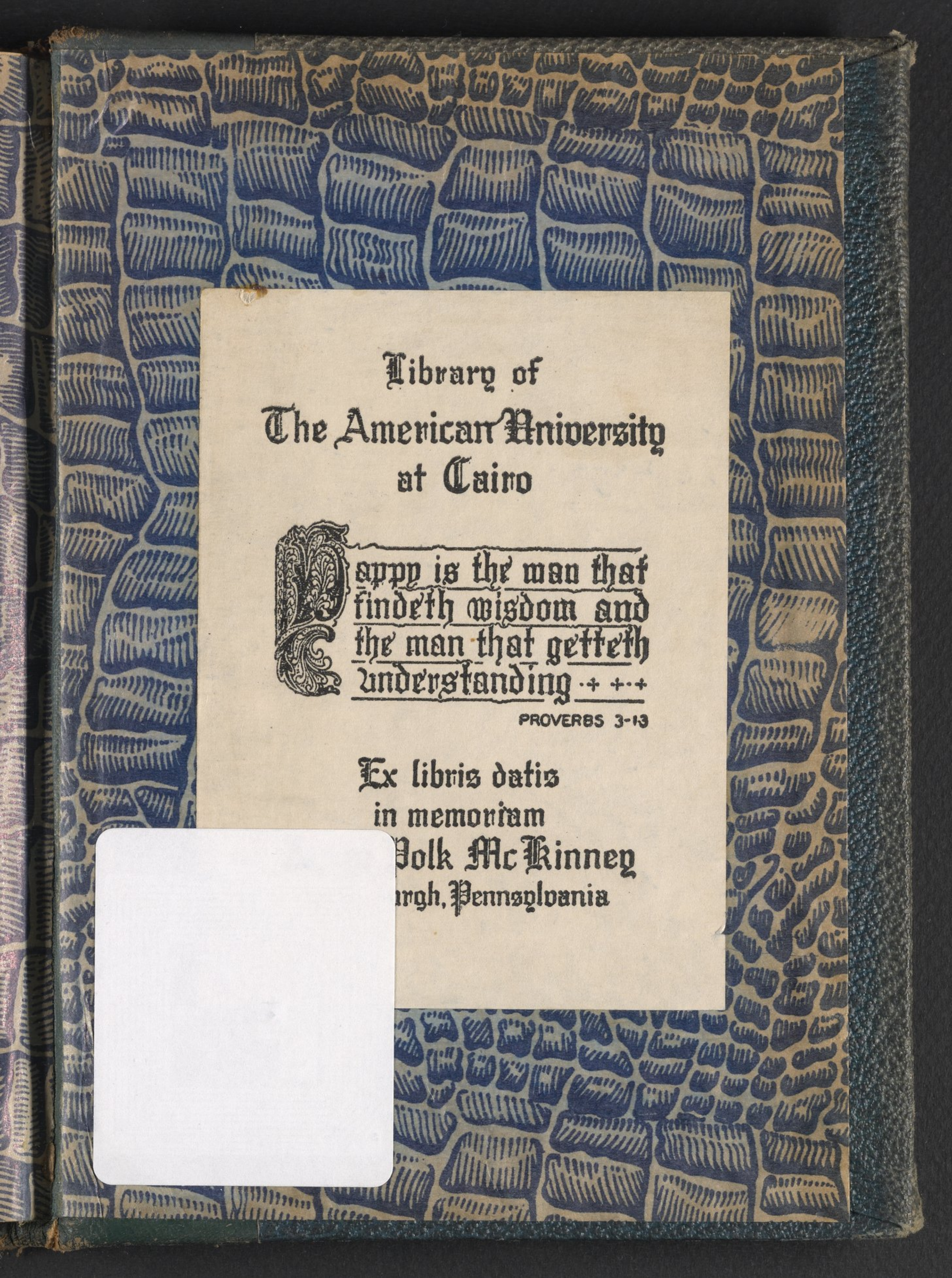
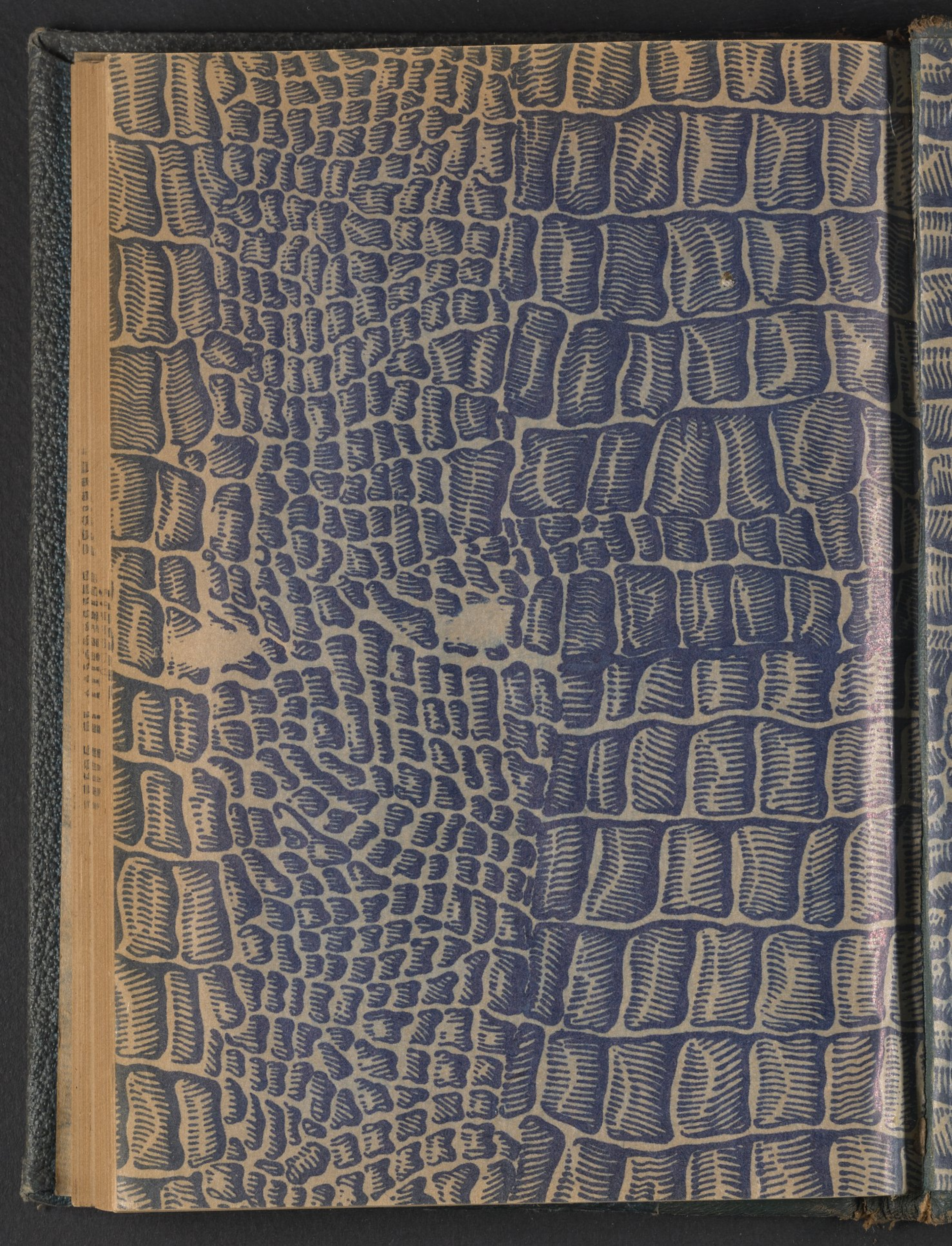
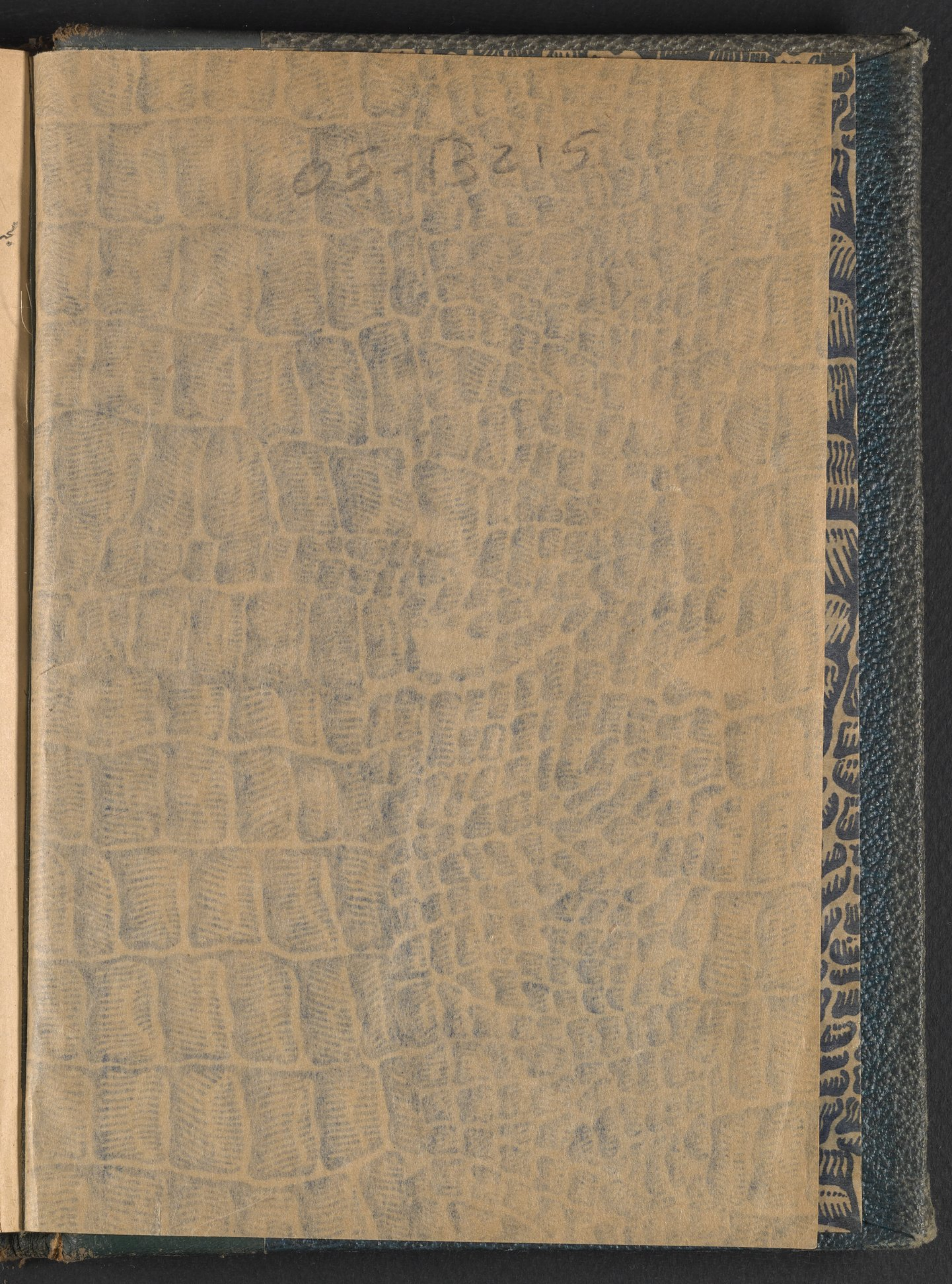



Library of
The American University
at Cairo
Happy is the man that
findeth wisdom and
the man that getteth
understanding
PROVERBS 3-13
Ex libris datis
in memoriam
Polk McKinney
rgh, Pennsylvania





لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

أعلام الإسلام

منصور الأندلس

علي أدهم

ملتزم الطبع والنشر أصحاب
دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه
١٩٤٤

ثبت المراجع

البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى المراكشى

نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب للمقّرى

الأنيس المطرب بروض القرطاس لأبى الحسن بن على بن أبى زرع

الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسّام

أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب

الحلّة السيراء لابن الأبّار

المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى

مطمح الأنفس للفتح بن خاقان

طبقات الأمم لصاعد الأندلسى

سراج الملوك للطرطوشى

الاستقصا فى أخبار المغرب الأقصى للسلاوى.

تاريخ ابن خلدون

صفة جزيرة الأندلس المنتخبة من كتاب الروض المعطار

الاغتباط فى حلى مدينة الفسطاط لابن سعيد

دائرة المعارف الإسلامية

Spanish Islam. By Reinhart Dozy.

The Moors in Spain. By S. Lane Poole.

The Moorish Empire in Spain. By Scott.

History of the Domination of the Arabs in Spain. By Condé.

مقدّمة

المنصور محمد بن عبد الله بن أبى عامر أعظم رجال الأندلس فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، وأقدر وزرائها ، وأرجحهم وزناً ، وأبعدهم غوراً ، وأسماهم عبقرية ، وأسيرهم ذكراً . وهو أحد الثلاثة الأفذاذ المعدودين فى تاريخ الأندلس السياسى ، والآخران هما الأمير عبد الرحمن الداخل - صقر قريش - والخليفة عبد الرحمن الناصر ، واذا عدّ رجال الدول الاسلامية من أهل السياسة والحرب كان المنصور من غير شك علماً من أعلامهم وقطباً من أقطابهم ، وشخصيته الباهرة تطالعك من خلال صفحات تاريخ الأندلس مشرقة الروعة ، متألقة العظمة ، وقد أنافت على عصره وحجبت غيرها من الشخصيات ، واستأثرت بالميدان ، وتفرّدت بالسبق والغلبة ، وهى شخصية طريفة أصيلة ممتازة ، قليلة النظير ، أوحدية الطراز ، وهو أحد المخاطرين النوادر فى دنيا الأعمال وعالم الحركة والنشاط .

وقد استرعت نظرى قصة حياته، وما اشتملت عليه من الدلالات البليغة ، والعبر الصالحة ، واجتذبت إعجابى منذ سنوات طويلة ، فعكفت على تتبع سيرته ، واستقراء أخباره ، وتمحيص حقيقته ، واستجلاء عبقريته ، وتفهم

نفسه ، وتمثل شخصه . وكانت تخالجنى فى أثناء ذلك مشاعر مختلفة ، وتضطرب فى نفسى خواطر كثيرة ، ويرى بعض المفكرين أن الطريقة المثلى لمحاولة فهم أى شخصية من الشخصيات ، وتقدير أعمالها ، هى أن نتحامى جهد الطاقة الوقوع تحت تأثيرها ، والوقوف فى ظلالها ، ولكنى أرى أن التأثر بالأشخاص الذين نحاول أن نترجم لهم ونفهم طبائعهم مزية من المزايا ، ولازمة من اللوازم بل لا بد لهذا التأثر من أن يبلغ مداه ، وينتهى إلى غايته ، ولعلنا بعد ذلك نكون أقدر على الفهم ، واستكناه البواعث ، ومعرفة الدخائل ، وأعلم بنواحى القوة والضعف ، والفهم الصادق ثمرة العطف البصير ، ونتاج المعرفة الصميمة .

وفى تاريخ العالم لونان من العظمة بارزان : أحدهما عظمة المردة الجبابرة الذين استطاعوا أن يحولوا مجرى التاريخ ، ويغيروا محوره ، وينقلوا الإنسانية من طور الى طور ، ومن هؤلاء الإسكندر ويوليوس قيصر ونابليون ، والآخر عظمة الذين قدموا للعالم قيما أخلاقية مستحدثة يسترشد بها الناس ، ويتخذونها قانوناً لحياتهم ، ودستوراً لتنظيم علاقاتهم بالكون والأبدية ، مثل بوذا وعيسى ومحمد . ولم يكن المنصور بن أبى عامر من أحد هذين الطرازين ، ولكن أكثر مشاهير العالم وأعيان الإنسانية يقتربون من أحد هذين النوعين بنسب متفاوتة ، ولا ريب أن المنصور كان أقرب إلى طراز رجال العمل والحركة منه إلى طراز رجال الروح والفكر .

وليس المنصور من باعثى النهضات وخالقى العصور الذين يبدءون صفحات

جديدة فى كتاب التاريخ العالمى ، وإنما هو من الرجال الذين يظهرون فى المرحلة الأخيرة من مراحل إحدى الحضارات ، أو قرب خاتمة عصر من عصورها ، فهو يختصر فى سيرته ذلك العصر ويلخص ذلك الدور من أدوار الحضارة ، ويؤكد ملامحه ، ويوضح خصائصه ، ويجلّى مزاياه ، ويكشف عن قوته وضعفه ، وخيره وشره ، ومثل هذا الرجل لا يخلق جديدا ، ولا يبتكر شيئاً ، وإنما يتبع برنامجاً سياسيا ، وينفذ خطة عملية ، ويحقق طموحاً ذاتيا ، ومصدر قوته إيمانه الشديد بنفسه ، وفهمه المباشر العميق لروح عصره ، وبقوة هذا الإيمان وصحة هذا الفهم قد يستطيع أن يعمل العجائب ويأتى بما يشبه المعجزات ، ولكنه لن يبدأ عصراً جديدا لأنه لا يستطيع أن يغير ماهية الأشياء ، ويكلف الأيام ضد طباعها ، وهو يحمل معه إلى قبره كل قوى عصره الخالقة التى استمد منها مجده وقوته ، والواقع أنه بموت المنصور انتهت عظمة المسلمين فى الأندلس ، وطويت أيامهم السعيدة ، وبدأ دور الانحلال والاضمحلال ، وتصدع البناء ، وتفكك الأواصر ، وزوال الوحدة ، وانتهى هذا الدور بتشريد المسلمين وجلائهم عن الأندلس مقهورين مدحورين بعد أن استهدفوا لألوان من المآسى الفاجعة والنكبات الصادعة .

والكثيرون ممن يكتبون سير العظماء قد تسدر العظمة أبصارهم فتختل موازينهم ، وتتناقض أحكامهم ، وينحرفون عن الحق ، ويجانبون الإنصاف ويميلون مع الهوى والتعصب ، وربما كان من المناسب فى هذا الطور من

أطوار حياتنا السياسية والأدبية أن نتعصب لرجالنا البارزين الذين نحاول أن نفاخر بهم ، ونتغنى بأمجادهم ، ونعتز بمواقفهم ، ونتخذهم حجة لنرد عن أنفسنا تهمة التخلف والتقصير ، وكان يسرنى أن يسيغ طبعى هذا اللون من الحماسة السخية ، ولكن تحرى الحق آثر فى نفسى ، وأحب إلىّ ، ويظهر أنى على كثرة ما لقيت فى الحياة من تقشّع الأوهام لا يزال عندى من البساطة ما يجعلنى أعتقد أن العالم سائر فى طريق النزاهة ، وطلب الحق الصراح ، وقد جعلت نصب عينى محاولة فهم الرجل ، وتوضيح أغراضه ومراميه ، ووصف سياسته وأساليبه ، والظروف التى ساعدت على تكوين شخصيته ، وابتناء مجده ، وإفساح المجال لمواهبه .

ولم أُحاول أن أُصوره ملاكاً طاهراً ، أو قديساً متألهاً ، أو بطلاً خالص البطولة ، نقى النبل ، كبير القلب ، وليس لزاماً على كاتب السيرة أن يدبّج المدح ، ويصوغ عقود الثناء ، أو أن يقف موقف الدفاع والمنافحة . ولو تصورنا المنصور على هذه الصورة لوجدنا له أعمالاً لا تتفق مع مقتضيات البطولة ، ومستلزمات النبل ، واضطررنا إلى أن نتكلف الاعتذار عن بعض أساليبه الملتوية ودسائسه ومؤامراته ، وألاعيبه السياسية ، وأفانينه فى الدهاء ، ودفعنا دفعاً إلى تسويغ أخطائه ، وزخرفة جرائمه ، وستر كبائره ، على أن إخفاء نواحى الضعف فى البطل ، أو الإغضاء عن هفواته وهناته هو — إلى حد ما — محاولة لتجريده من إنسانيته ، وجعله شبحاً من أشباح الوهم ، أو طيفاً من أطياف

الخيال ، وكذلك نخطئ الفهم ونسيء إلى الحقيقة إذا تصورناه شيطاناً مريدا وسفاحاً مقبوح الطوية ، منتكس النفس ، والغاً فى الدماء ، فإن الرجل لم يكن من هـذا الطراز المسيخ ، وقد كان على قسوته وجبروته شديد الشعور بالعدالة ، متوخياً المصلحة العـامة ، عاملاً على رفع شأن أمته و إعزاز دينه ، ولـكنه كان لا يرحم أعداءه ولا يلين لهم ، ولا يبقى على منافسيه أو يترفق بهم ولا ينام عن تقرير سلطانه ، وفرض شخصيته ، وشق طريقه ، وفى سبيل التمـكين لملـكه والجلب على أعدائه كان لا يميز فى بعض الأحيان بين المحظور والمبـاح ، و ينتقل إلى ما يسميه الفيلسوف الألمـانى نيتشه « ما وراء الخير والشر » .

ولم يكن المنصور يصطنع الخداع حبا للخداع فى ذاته ، ولذا لم يكن دائم الخداع ملتزماً للخب والرياء ، ولم يخدع الـكثيرين ، ولـكن الأفراد الأقلاء الذين خدعهم وغرر بهم كان مستقبله السياسى يتطلب ذلك ، وأ كثر ضحايا خداعه كانوا يتنبهون لخديعته بعـد فوات الأوان ، ولعـل غالبا الناصرى بطل الأندلس فى أوائل عصر المنصور وشيخ قوادها كان الوحيد الذى أخذ حذره وتأهب فى الوقت المناسب ، ولـكن الحظ خانه وحالف المنصور .

وادعاء الإنسان خليقة من الخلائق ، والتظاهر بهـا ملاوة من الدهر ، والعمـل فى الوقت نفسه على نقيضها لعبة يستطيعها كل من أُوتى شيئاً من القدرة على التمثيـل والمداورة ، ولـكن الفنان البارع فى الدهاء هو الذى

يستطيع أن يحمل النـاس على تصديقه والثقة به ، والاعتماد عليه ، بعد تبين بطلانه ، وظهور فريته ، وافتضاح سره المرة بعـد المرة ، واتخاذ ذلك سياسة متّبعة وخطة مرسومة ، والسير بمقتضاها بلا تردد ولا انحراف قدرة أُوتيهـا القليلون الذين أجادوا هذه التجارة ، وأحسنوا هذه اللعبة ، ومن هؤلاء القليلين ريشليه و بسمارك والمنصور بن أبى عامر .

وقد شاع فى السنوات الأخيرة الأسلوب الروائى فى كتابة السير والتاريخ وكان أكبر باعث عليه الحرص على الافتنان فى التشويق ، والاحتيال على الإغراء ومنافسة القصة فى الرواج والذيوع ، ولا نزاع فى أن من حق كاتب السيرة أن يفيد من أسلوب الرواية وطريقة القصص ، و ينتفع منـه بالعناصر الملائمة لموضوعه لتدعيم بعض المواقف ، وتجميـل سرد الحوادث ، ولـكن الإسراف فى اتباع هـذا الأسلوب لا يخلو من خطر ، وذلك لأن الروائى يستمتع بمزية لا يستطيع المؤرخ أو كاتب السيرة أن يجاريه فيها وهى مزية الإحاطة بالتفصيلات ، والعـلم بكل شىء ، والروائى لا يكتفى بوصف الملامح البادية لأبطاله ومظاهر بيئتهم وسائر أحوالهم وصفاً مفصلاً بل يتغلغل بنا إلى مسارب نفوسهم ، ودخائل عقولهم ، ومستودع أسرارهم ، والمؤرخ الذى يحاول اتباع هذا الأسلوب لا مندوحة له عن أن يظهر بمظهر الملم بكل كبيرة وصغيرة والذى لا يندعن علمه شىء ، وهو موقف باهظ التكاليف ، جم الأعباء ، كثير المزالق ، غـير مأمون العثرات ، و يفرض على المؤرخ فى بعض الأوقات أن

يغوص فى الأوهام ، ويمعن فى الخيال ، ليسد الفجوات ، ويملأ الثغرات ، ويحقق ما أخذ به نفسه ، ووعد به قارئه ، وسيضطر إلى التزام ذلك على وجه الخصوص فى النواحى التى لا تسعفه فيها الوثائق والأسانيد ، ولا تلبى طُلعَته الروايات المدونة ، والأخبار المأثورة ، ولهذا النوع من الكتابة سحره الأخّاذ وفتنته المغرية ، وقد ينفى ما به من الزغل مقدرة الكاتب وعلو بيانه ، ولكن عيبه الأصيل هو طغيان جانب الرواية على جانب التاريخ ، وقد أبحت لنفسى ما يجوز للمؤرخ ، وهو تفصيل المواقف وتلوينها بما لا يخرجها عن طبيعتها ، ولا يجردها من جوهرها ، متحريا الاعتماد على أوثق المصادر الميسورة ، وعملت على تفسير الحوادث وتمحيصها بما تتسع له طاقتى ، ويبلغ إليه علمى ، وقد همنى أن أكون مؤرخاً مدققاً قبل أن أكون روائيا شائقاً .

ومن أبطال التاريخ من نلتمس فى حياتهم الضوء الذى يعيننا على السير فى الظلام المدلهم ، ويؤنس وحشتنا ، ومنهم من نلتمس فى حياته القوة التى تعيننا على لقاء الصعاب ومواجهة الأزمات ، وحياة المنصور أنموذج فى ابتغاء طلب القوة ، والعمل على تحقيق أسبابها ، واستيفاء عناصرها ، ويرى بعض المفكرين أن حياتنا فى هذه الدنيا رحلة من عالم مجهول إلى عالم آخر مجهول ، وأنه ليس من المناسب والمقبول أن نكتفى بطلب القوة والتماس أسبابها والبحث عن الشهرة الواسعة والجاه العريض والمتعة والثروة بدلا من نشدان الكمال ، وصفاء النفس ، وخلاص الروح من رق المطامع وأسر الأهواء ، ويرى أصحاب

هذا الرأى أن السعى وراء القوة هو رغبة متنكسة فى الحرص على الحرية ، وضمان الخلاص ، وأن الذين يشتاقون إلى القوة ، ويتحرقون على الظفر بها فى نفوسهم زيغ ، وفى قلوبهم مرض ، وفى طبائعهم عقد ، وماذا يجدى على الإنسان إذا كسب العالم جميعاً وخسر روحه !

والحقيقة أن طلب القوة من حيث هو رغبة غامضة من شيم النفوس ، ولكن الرغبة فى القوة من حيث هى عاطفة مسيطرة ، ونزعة عارمة جبارة من أندر الصفات ، والرجل العادى يطلب القوة ولكنه لا يتسلح بالشجاعة الكافية، ويتوق إلى السيطرة ولكنه لا يريد أن يحمل التبعة ، وينزع إلى النفوذ ولكنه لا يريد أن يضنى نفسه بالعمل المتواصل والإرهاق المستمر ، والقوة لا ينالها العابثون اللاهون . وقد يظفر بها من يوفى لها حقوقها ، ويقدم فروضها ، وقد كان المنصور كلما عظم نصيبه من القوة كثر همه ، وارتفع إلى مستوى ما يحمل من تبعة . فحياته من هذه الناحية قدوة المقتدى ومثل شرود وآية بليغة نادرة ، وكان لا يريد القوة ليتخذها ذريعة للعيشة الرافهة ، أو الانغماس فى اللهو والمباهاة بمباشرة السلطة وتصعير الخد ، وإنما كان رجل جد وإقدام ، أبلى جدة شبابه وأفنى زهرة عمره فى الاضطلاع بالأعباء الجسام وظل مجاهداً بفكره ويده حتى قضى فى ميدان الجهاد ، وقد استلب سلطة الخليفة هشام ، ومات وزمامها فى يده ، بل ورّثها ولده من بعده ، وذاد عنها فى حياته أقوى ذياد ونافح أقوى منافحة ، ورفع علم الإسلام عالياً خفاقاً ، وردّ

عنه اعتداء المتألبين عليه ، وفلّ جموعهم ، وخضّد شوكتهم ، وغزاهم فى أعقار دورهم ، وفرض عليهم الجزية والاعتراف بطاعته ، وأوقع الرعب فى قلوبهم حتى صار ملوكهم يصهرون إليه ، ويتحرون مواقع رضاه ، ويمشون فى ركابه وينقادون له ، وقد ثبّت مكانة المسلمين فى الأندلس ، وصان مدة سنين طويلة حضارتهم الزاهرة ، فهو جدير بالإجلال والتوقير وإن كان فيه بعض النواحى التى لا تستدعى الحب ، ولا تستأهل الإعجاب ، وقد أسعفته الأقدار ، وحابته الظروف من ناحية ، وبذل هو من ناحية أخرى جهداً جباراً ، واستغل ملكاته العظيمة ، وعبقريته الصادقة ، ولقد قال دالمبير : « شيئان يستطيعان أن يصلا إلى قمة الهرم : النسر ، والحشرة الزاحفة » وقد كان فى المنصور صبر الحشرة الزاحفة ومثابرتها ودؤوبها ، وكان فيه من النسر المحلّق قدرته على التدويم والانقضاض ، ولذا كان وصوله إلى القمة ، وبلوغه الذروة حتماً مقضياً .

أصله ونشأته

بعد مضى أيام قلائل على وفاة خليفة الأندلس الأموى العظيم عبد الرحمن الناصر ، و إسناد الخلافة إلى ابنه الحكم المستنصر ، وفى يوم أندلسى رائق الجو ناعم الأنفاس ، اجتمع خمسة من طلاّب جامعة قرطبة فى متنزّه بجهة الناعورة - إحدى أحيائها الجميلة المزدهرة - ومعهم سفرة فيها طعام ، للترفيه عن أنفسهم من عناء الدرس وجهد التحصيل ، وظلوا ساعات فى لهو وقصف يتطارحون أحاديث الأدب ، ولطائف العلوم ، وعجيب النوادر ، وكان بينهم شاب أبلج الهيئة ، مديد القامة ، غض الشباب ، فيّاض القوة مصقول الإهاب قد لوّحت شمس الجنوب بشرة وجهه بعض التلويح ، وكان يبدو فى حركاته و إشاراته شىء من الشموخ والكبرياء ، وفى لحظاته بريق الذكاء النفّاذ والصرامة وحب السيطرة والاستعلاء ، وكان يشاركهم فى لهوهم ، ويخوض معهم فيما يتجاذبونه من أحاديث ، وكان وعى هذا الشاب الاجتماعى قد استيقظ مبكراً ، واتسعت آفاق خبرته ، ونضجت معرفته ، فأصبحت له خبرة واسعة بالعالم الذى يحيط به ، وفراسة صادقة فى الناس ، وكان لحدة إحساسه ينطبع فى نفسه كل ما يرى و يسمع من مؤثرات انطباعاً قويا ، ولذا استطاع أن يمتع أصحابه

بما كان يجلوه عليهم من روائع القصص ، وطريف المشاهدات ، ثم غشيه بغتة سكون رهيب ، فأمسك عن الكلام ، ولاذ بالصمت ، وأخذت تصطرع فى نفسه الخواطر ، وتموج بها الأفكار ، ولما تطاول صمته ، واستمر تفكيره ، وحرم أصحابه من متعة حديثه التفت إليه أحد الرفقة وقال له فى عتب رفيق : «ماالذى شغَلك يا ابن أبى عامر وأهمّك وملَك عليك مذاهب تفكيرك ؟ لقد أطلت الصمت ، وأسرفت فى التفكير ، وقد جئنا لنتروّض ، ونلهو ونمرح ، ونطيب نفسا ، ونقر عيناً ، لا لنفكر ونمعن فى التفكير » .

وكأنما أيقظت هذه الكلمات الشاب من حلم عميق ، وذهول مستحكم ، فهتك حجاب الصمت ، وقال فى لهجة رصينة جدّية وتؤدة ملحوظة : « لا بدّ لى أن أملك الأندلس و ينفذ حكمى فيها ! » .

فضحك منه أصحابه ، وهزءوا به ، ولكنه لم يبال بضحكهم وسخريتهم ، واسترسل يقول « تمنوا علىّ » ، وليختر كل واحد منكم خطة أوليه إياها إذا أفضى إلىّ الأمر »

فعجب هؤلاء الشبان من أمر صاحبهم المزهو الطمّاح ، ولكنهم رأوا المضى معه إلى آخر الشوط اجتلاباً للسرور ، واستتماماً للفكاهة ، ورغبة فى المعابثة .

فقال أحدهم : « أتمنى أن تولينى القضاء بجهتى - كورة رية - فإنه يعجبنى هذا التين الذى يجىء منها ، وأحب أن أتشفى من أكله » .

وقال آخر : « توليني حسبة السوق فإني أحب هذا الإسْفَنَج[١] ، وأتمنى أن أنال بغيتي من أمثال هذه اللذائذ دون أن أنفق درهما »

وقال ثالث وكان من أبناء عمومة الشاب ويعرف في التاريخ باسم ابن عَسْقَلَاجَة : «إني أُوثر قرطبة ذات القصور العجيبة ، والمساجد الفخمة ، زينة المدن وعروس البلاد ، وأقصى ما أتمناه أن أصبح حاكما لها »

وظل الرابع صامتاً لا ينبس ببنت شفة ، وقد تقطب جبينه وبان في وجهه الامتعاض ، وكان شابًّا مزّاحا تِلْعَابَة ، ولكن كان يضايقه من صاحبه فرط اعتداده بنفسه ، وقد استكثر عليه في هذه المرة عريض ادعائه ، وتطوحه في عالم الأماني البعيدة ، وساء الشاب صمته وسكونه فالتفت إليه وقال له في لهجة لا تخلو من العنف « تمنّ أنت ! »

وكأنما عنت له فرصة للغض من صاحبه ، والزراية به ، فأجابه ساخراً متهانفاً « أيها الدعي المأفون ! أتمنى إذا أفضى إليك الأمر أن يطاف بي قرطبة كلها على حمار ووجهي إلى الذنب وأنا مطلي بالعسل ليجتمع الذباب عليّ والنحل وليكن هذا أول ما تستفتح به عهدك إذا حكمت الأندلس ، وهذه هي المكرمة التي أريدها منك أيها المغرور الطامع في الملك ، المتطاول على الخلافة » .

---

(١) المقصود بالإسفنج هنا نوع من القطائف .

وكان صاحبنا الطموح حمىّ الأنف ، عصبى المزاج ، شديد النقمة ، لاينسى إساءة، ولا يغتفر جريرة ، ولكنه كان يعرف كيف يملك نفسه ويكظم غضَبه حتى تحين ساعة الانتقام ، فتظاهر بعدم المبالاة ، وأجاب فى هدوء الواثق المستيقن : « ليكن ما أراده كل منكم، وسيأتى الزمن الذى تتذكرون فيه هذا اليوم ، وستحقق أمنية كل منكم ويجاب طلبه »

وطوى هذا الحديث وأخذوا بعد ذلك فى فنون أخرى من الأحاديث اللاهية المسلية ، ولما تدانى المساء ، ودبت ظلاله تفرق شمل الجماعة ، وعاد الشاب السادر فى أوهامه والمستغرق فى أحلامه إلى منزل أحد أقربائه ، وكان نازلاً عنده فى حجرة فوق بيته ، فصحبه مضيفه إلى حجرته ، وحاول الحديث معه ، ولكن الشاب كان أميل إلى الصمت والضرب فى شعاب الفكر ، وكان يجاوب عن ما يوجه إليه من حديث إجابة مختصرة ، فاستحسن قريبه أن يتركه على حاله ، وذهب لشأنه ، وفى بواكير صباح اليوم التالى دخل عليه فوجده قاعداً على الحالة التى تركه عليها أول الليل حين فصل عنه ، فقال له « ما أراك نمت الليلة »

فأجابه : « لا »

« ما الذى أسهرك ؟ »

« فكرة عجيبة طرأت علىّ ، فكرت إذا أفضى إلىّ الأمر ومات محمد

ابن بشير القاضى بمن أستبدله ، ومن ذا الذى يقوم مقامه ، فجلت الأندلس كلها بخاطرى فلم أجد إلا رجلاً واحداً »

« لعله محمد بن السليم »

فأجاب الشاب : « هو والله ولشد ما اتفق خاطرى وخاطرك »

هكذا كان يفكر هذا الطالب المجهول فى غمار آلاف الطلبة الذين يغشون جامعة قرطبة ، كان يحلم بالعظمة والنفوذ ، ويحلق فى الجواء العالية ، ويشعر بأنه خلق ليأتى بالعظائم ويضطلع بجلائل الأمور ، وتمتد آماله وتتراحب حتى تشمل الأندلس برمتها ، ولم يكن لهذا الشاب سند فى قصر الخليفة ، ولا عتاد من مال ضخم ، ولا عدة من جاه عظيم ، ولم تكن أسرته من الأسر البارزة اللامعة فى حياة الأندلس السياسية والاجتماعية ، ولكنه رغم ذلك كان يسترسل فى هذه الأفكار ، ويمنّى نفسه بهذه الأمانى ، ولا يستطيع كتمانها فى سريرته بل يصارح بها زملاءه حتى ظن به فريق منهم الظنون ، وخالوه ملتاث العقل منحرف المزاج ، ولم يكن هذا الشاب مختل الشعور ولا من بُناة القصور فى الهواء ، وإنما كان يشعر شعوراً قوياً بدوافع غير واعية تدفعه إلى التماس طريق غير معهود ، وإلى أن يعيش كما يقول نيتشه « على شفا الخطر » فتحدى العالم أمر مركب فى فطرته ، وهو يحن إلى مجالدة الصعاب ، واقتحام المخاطر لأنها تستخرج ما عنده ، وتكشف عن قوته المكنونة ، وكنوزه المدخرة .

هذا الشاب المترامى الأمل ، البعيد الطموح ، هو محمد أبو عامر بن عبدالله

ابن أبى عامر محمد بن الوليد ، وأسرته هى بنو عامر فرع من معافر إحدى قبائل اليمن ، وكان أول من دخل منهم الأندلس جده عبد الملك مؤسس الأسرة وكان أحد العرب القليلين فى جيش طارق بن زياد ، وقد اضطرته ظروفه السياسية وأحواله المالية إلى الاندماج فى سلك المجاهدين ، فكان من المغامرين الذين ساروا تحت راية طارق ، وقد رأس فرقة فى الجيش لأنه كان من العرب الصرحاء ، وأبلى بلاءً حسناً فى الاستيلاء على قرطاجنة ، وهى أول مكان حصين استولى عليه المسلمون فى الأندلس ، و بعد أن اشترك فى الفتح وكان له فيه أثر جميل أقام بالجزيرة الخضراء فى قرية من أعمالها تسمى طرّش على نهر وادى أروا ، وساد أهلها ، وكثر عقبه فيها ، وتكررت فيهم النباهة والوجاهة ، وجاور الخلفاء منهم بقرطبة جماعة منهم أبو عامر محمد بن الوليد الذى عرف آل عامر طرّا به ، وساد بعده ولده عامر وتقدم عند الخلفاء وولى الأعمال ، ومات بقرطبة . وكان والد المنصور عبد الله المكنى بأبى حفص من أهل الدين والزهد فى الدنيا وقد كف عن زخرفها ، وغض طرفه عن متاعها ، وانصرف بكليته إلى العبادات ، وقعد عن خدمة السلطان ، ومات منصرفاً من حجه بمدينة طرابلس الغرب فى أواخر عهد الخليفة الناصر ، وقد أصهر إلى التميميين المعروفين فى قرطبة ببنى برطال فتزوج بُرَيهة بنت يحيى بن زكريا ، فولدت له أبا عامر المنصور وأخاه يحيى ، ولذا قال فيه ابن درّاج القسطْلّى من قصيدة يمدحه بها :

تلاقت عليه من تميم ويَعْرُبٍ شموس تلالا فى العلى وبدور

من الحميريّين الذين أكفهم سحائب تهمى بالندى وبحور

وكانت أم عبد الله والد المنصور بنت الوزير يحيي بن إسحق وزير الناصر لدين الله وطبيبه . وقد ولد محمد بن أبى عامر سنة ٣٢٨ هجرية، وفيها كانت الهزيمة العظيمة بالخندق على الخليفة عبد الرحمن الناصر ، ونشأ بالجزيرة الخضراء فى قرية طرّش موطن عشيرته وديار أجداده ، وهى من أطيب بلاد الأندلس أرضاً وأصحها هواء ، وكان فى طفولته يلعب فى حصونها المتهدمة ، وقلاعها المتداعية الحافلة بذكريات الفتح ، وفى مطالع شبابه ورد قرطبة لطلب العلم والأدب وسماع الحديث فى جامعتها ، فقرأ الأدب وقيد اللغات على أبى على القالى وأبى بكر بن القوطية ، وقرأ الحديث على أبى بكر بن معاوية القرشى ، وأظهر براعة ونباغة فى التحصيل ، على أن هذا الشاب لم يكن شأنه تفلية الكتب ، والإكباب على الدرس ، والتبحر فى غوامض العلم ، والإغراق فى طلبه ، وكانت المعرفة فى رأيه وسيلة لا غاية ، وإنما كان جلّ اعتماده على اتقاد فطنته وجودة فهمه ، وقد كان معنيًّا بقراءة التاريخ، وكان يقف طويلاً حيال سير الرجال الذين نشأوا من أصل وضيع واستطاعوا أن يتركوا فى العالم دوياً ، وألم بأخبار المغازى والفتوح الاسلامية ، وكان يعد نفسه ليكون قاضياً أو ليقوم بعمل من أعمال الدواوين شأن أعمامه وخؤولته ، وبعد أن أتم دراسته اضطر الى أن يعول نفسه فاقتعد دكاناً عند باب قصر الخلافة يكتب فيه لمن يعنّ له من الخدم والذين يريدون التقدم بالشكاوى ، ولم يكن قانعاً بطبيعة

الحال بهذا الابتداء البسيط والخطوة المتواضعة التى أرغمته عليها ظروفه الخاصة فتوسل بالحاجب جعفر المصحفى صاحب الكلمة المسموعة والجاه العظيم فى دولة الحكم ، ولكن المصحفى أهمل شأنه ولم يبلغه أمنيته ، ومكّنته إقامته قرب باب القصر من الاتصال بفتيانه ، وكان محمد لبقاً فى اكتساب المودات ناعم الملمس جذّاب الشخصية أخّاذ الحديث ، ومن المحتمل أن يكون قد استعان بهم فى الحصول على وظيفة بمحكمة قرطبة ، ومهما يكن من الأمر فقد عين فى إحدى وظائف محكمة قرطبة ، وكان القاضى فى ذلك الوقت هو محمد ابن السليم الذى كان محمد يجلّه ويحترمه لأنه كان مستقيم الأخلاق ، محمود السيرة ، ومن أقدر قضاة قرطبة ، وسبق أن رشحه محمد لهذا المنصب ، ولكن محمد بن السليم كان رجلاً هادئ النفس فاتر الطبع فيه أناة العلماء وترددهم مع الميل إلى المحافظة ، وكراهة اعتساف المجهول ، ولذا لم يسترح إلى ابن أبى عامر الحاد العاطفة المستوفز الميول ، العملى الغاية ، ولم يأخذ عليه تقصيراً ، ولكنه مع ذلك كان لا يطمئن إليه . فخلا يوماً بالحاجب المصحفى وشكا إليه شجوه بمحمد ، ووصف له حاله ، فوعده المصحفى بنقله ، وأخذ يتحين الفرص لذلك ، وضيق ابن السليم بمحمد أعد له المكانة المرموقة فى القصر كما سنرى فيما بعد .

الخطوة الأولى

كان الخليفة عبد الرحمن الناصر من أعظم خلفاء المسلمين قاطبـة ، وفى طليعة ملوك الأرض قوة عزيمة وسعة إدراك وحسن سياسة ، ومن أنهضهم بالأعباء وأكثرهم تضحية بالراحة فى سبيل توطيد الملك وتركيز السلطة . وقد ولى إمارة الأندلس وسنه لا تتجاوز الثانية والعشرين ، والأمور فوضى ، والأحوال مختلة ، وقد استقرت سلطة الثائرين بالدولة واستغلظ أمر الخارجين عليها من زعماء العرب ، وقادة الأسبانيين ، ورؤساء البربر ، فلم يتعاظم هـذا الموقف عبـد الرحمن ، ولم يستكن له بل بادر بمصارحة كبار الثائرين بأنه لا يكتفى منهم بالجزية ، وتقديم شعائر الطاعة من بعيد ، وأفهم الجميع فى غير مواربة أنه لا يريد شيئاً دون تسليم قلاعهم وحصونهم ومعاقلهم والمدن التى استقلوا بها ، وأنه لا يرى أن ينفرد بالسلطة أحد غيره ، ووعدهم بأن من قدم الطاعة يغتفر له ذنبه وتنسى إساءته ، وأن من أصر على العصيان سيكون جزاؤه أن يصبح عبرة للمعتبر وينـكل به أشد تنكيل . وتبدو هذه السياسة لأول وهلة سياسة متهورة حمقاء ، وأن واضع خطتها يطلب طلباً مغالى فيه ، وأنه كان من المحتمل أن يتألب عليه الثائرون ويتحالفوا على سحق قوته ،

ولكن الواقع أن هذه السياسة كانت ثمرة تفكير عميق ، وفهم صادق لاتجاهات العصر ، ومعرفة بطبائع الأندلسيين على اختلاف شيعهم وأحزابهم والملك العظيم نتيجة لضرورة عظيمة ، وكان قد طرأ على الأندلس شيء من التغير لا يخفى على رجل دقيق الملاحظة أحوذى مثل عبد الرحمن ، كانت الارستقراطية العربية القديمة قد فقدت رؤساءها البارزين ، ولم يكن للباقين بعدهم مواهب تمكّنهم من أن يسدّوا مسدّهم ، و يقفوا مواقفهم ، وكان رؤساء الأسبانيين قد علت أسنانهم وفترت حماستهم ، وقلّت رغبتهم فى التحدى والمناوأة ، وكان الجيل الناشئ لا يحقد على السلطان ولا يضمر له السوء لأنه لم يشعر بسطوته ، وقد لمس آثار الفوضى فى إفساد الحياة الاجتماعية والمرافق الاقتصادية ، ورأى ما عانته البلاد من إطالة الحرب ، وحرق القرى ، وقطع الأشجار ، و إتلاف الزرع ، واقتنعت الناس بعقم الثورات وعدم جدواها ، وأدركوا أنهم أسلموا البلاد لقبضة من الزعماء الطامعين يبتزون أموالهم ، و يعنفون بهم ، و يهدرون حرماتهم ، و يسومونهم الهوان ، وأخذوا يميلون إلى استعادة نفوذ الإمارة المركزية ذات السلطة الشاملة والسلطان القاهر ، فهل يستطيع الأمير الأموى الجديد أن يعيد الأمر إلى نصابه ، و يرد عليهم الأمن المطلوب والسلام المنشود ؟ هذه كانت الأمنية التى جاشت بنفوس معظم أهل الأندلس ولما كان عبد الرحمن يحاول إخضاع الثائرين كان يراهم أميل إلى الخضوع وأقرب إلى الطاعة والاستسلام ، وكان يزيد حماسة الجنود وتفانيهم فى الطاعة

وجود الأمير الهمام على رأس الجيش ، وأخذت مدن الأندلس التى استقلت عن سلطان الأمويين تسلم له مدينة بعد مدينة ، فدخل اشبيلية واسترد طُلَيْطِلَة ولَقَنْت وبَطَلْيَوْس ، وأخضع البربر فى الغرب وشرع بعد ذلك فى إخضاع الأقاليم الجبلية الجنوبية ، وكان بها الثائر الخطير ابن حفصون ، وكان عبد الرحمن يعرف مناعة تلك النواحى ، ولم ينتصر على ابن حفصون انتصارا حاسماً ، وإنما افتتح الكثير من حصونه ودوّخ سائر أقطاره ، وضيّق عليه ، وانتقص أطرافه ، ومات هذا الثائر العنيد بعد قليل وتمكن عبد الرحمن من دخول قلعته الحصينة المتأشّبة فى بُبَشْتر التى طالما ردت الجيوش وهى كليلة ، وتمكن عبد الرحمن بمثابرته الدائبة ، وعزمه الذى لا يلين من استرداد ملك آبائه واستعادة أملاكهم ، وحصر السلطة كلها فى يده ، ولكنه كان مستبداً عادلاً فأخذت تعود إلى بلاد الأندلس رفاهتها ، ومظاهر مجدها ، وتتجدد معالم حضارتها ، وقد فهم عبد الرحمن حاجة عصره ، وعرف كيف يلبى هذه الحاجة ، وهذا هو مفتاح عظمته وسر نجاحه .

ومن أهم الخطط التى التزمها عبد الرحمن عمله على انتزاع السلطة من يد أمراء العرب الذين أساءوا استعمالها ، وسعيه فى توهين قوتهم ، وكان يقصد من وراء ذلك إلى محاولة مزج شعوب شبه الجزيرة لتتكون منهم أمة واحدة متحدة الغاية ، ومن ثم كان يحاول القضاء على الفوارق القبلية لتقوم مكانها فوارق الطبقات والأحوال ، وتنفيذاً لهذه السياسة كان ينهض برجال من

أُصول غير معروفة فى الحسب والنسب ليضمن تعلقهم به ، وإخلاصهم له وإبقاءهم عليه ، ونظم جيشاً لحماية الدولة أكثره من الصقالبة ، وكانوا يشبهون المماليك الذين استجلبهم صلاح الدين إلى مصر ، وقد استبدّوا مثلهم فيما بعد بالأمر .

ورغم تغلب عبد الرحمن على الثائرين وخضد شوكتهم كان هناك خطران عظيمان يهددان ملكه ويشغلان باله وهما مملكة ليون فى الشمال ، والخلافة الإفريقية التى أنشأها الفاطميون الشيعة فى إفريقية سنة ٢٩٧ هجرية ، فحارب المسيحيين فى الشمال وانتصر على مملكتى ليون ونافار انتصارات باهرة ، وكان يوالى الغزوات الظافرة فى أكثر الأعوام .

أما خطر الخلافة الفاطمية فمنشؤه أن الفاطميين كانوا يريدون بسط سلطانهم على المسلمين جميعاً ، وضم الدول الاسلامية كلها ، وكانوا يتطلعون إلى الأندلس ، ويطمعون فى ثروتها وخيراتها ، فبعد أن استولى عبيد الله المهدى أول خلفائهم على أملاك الأغالبة راسل فوراً ابن حفصون الذى كان ثائراً بالأندلس ، واعترف ابن حفصون بخلافته ، ولم يؤد هذا الاتفاق إلى نتيجة ، ولكن هذا لم ييئس الفاطميين ، وكانت رسلهم تطوف بالأندلس فى ثياب التجار ، ولو قدر للفاطميين أن يضعوا أقدامهم فى شبه جزيرة إسبانيا لوجدوا لهم من بين أهلها أنصاراً يرحبون بهم ، وينضمون إليهم ، فقد كانت فكرة

المهدى المنتظر مألوفة عنـد الأندلسيين كما كانت مألوفة فى سائر أنحاء العالم الإسلامى .

و بينما كان عبد الرحمن يجاهد مملـكة ليون فى الشمال علم أن الفاطميين يتحفزون لمهاجمة المغرب الأقصى ، ومعنى ذلك أنهم متى أتموا فتحه و إخضاعه اتجهوا إلى الأندلس، ونازلوا عبد الرحمن فى عقر داره ، فلم يكن له مندوحة عن مساعدة المدافعين عن المغرب الأقصى ليظل حاجزاً بين الفاطميين والأندلس ، فشرع سرًّا فى مساعدة الأمراء الذين يقودون قبائل المغرب الأقصى ، واتفق مع محمد بن خزر رئيس قبيلة مَغْرَاوَة التى هزمت جيوش الفاطميين وطردتهم من المغرب الأوسط وأرغمت هـذا الإقليم على الطاعة للأمويين ، واستمال إلى جانبه ابن أبى العافية رئيس قبيلة مِكْنَاسَة، ولما كان امتلاك حصن على شاطىء إفريقية من الخطوات اللازمة فقد استولى الناصر على حصن سبتة .

وكان عبدالرحمن من أنصار الملـكية المطلقة ، لأنه كان يرى أن ترك النفوذ والقوة فى يد الأرستقراطيـة يزيد طمع أفرادها و يقوى ميلهم إلى الثورة ، و يغذى كبرياءهم ، وكان يمنح أسمى الوظائف للموالى والأجانب من الصقالبة وغيرهم ليكونوا آلات سهلة فى يده ، وقد اعتمد كثير من أمراء الأندلس على الصقالبة ، ولـكن فى عهد عبد الرحمن عظم نفوذهم ، وكثر عددهم كثرة لم يبلغها من قبل ، وكان ينيط بهم الوظائف السامية فى الجيش والأعمال الهامة المدنية .

وقد عمل عبد الرحمن ما يقارب المعجزة ، فقد تولى الحكم والبلاد تسودها الفوضى ، وتتنازعها الشيع ، وقد تقسمها فيما بينهم الكثيرون من الزعماء المختلفى الجنسيات ، وكانت الأندلس مستهدفة لغزو المسيحيين من الشمال والفاطميين من الجنوب ، فأقال عثرة الأندلس وانتشلها من الفوضى ، ورفعها إلى مستوى أرفع مما بلغته فى سائر عصورها ، ومنحها قوة أعظم مما كانت لها ، وأكسبها الرخاء والرغد فى الداخل ، وأعلى سمعتها ورفع مكانتها فى الخارج ، ونهضت الفنون والصناعات ، وتقدمت المعرفة والعلم ، وراجت التجارة ، وكثرت الأرباح ، وكان الأمن مستتباً فى جميع الجهات ، وارتفع مستوى الحياة تبعا لذلك ، ووصل عدد سكان قرطبة إلى نصف المليون ، وكان بها ثلاثة آلاف مسجد والكثير من القصور الفخمة والدور العامرة ، وأنشأ مدينة الزهراء فى شمالى قرطبة واستغرق تأسيسها أكثر من خمسة وعشرين عاما ، وابتنى أسطولا لينازع به الفاطميين السلطة فى البحر المتوسط كما أن أخذه لسبتة جعل مفتاح المغرب الأقصى فى يده وراسله إمبراطور القسطنطينية وملوك المانيا وإيطاليا وفرنسا وسعوا للتحالف معه ، وكان عبد الرحمن على عظم مكانته وجلالة قدره شخصية لامعة محبوبة يترك فى نفس كل من يخالطه أجمل الأثر ، وأسمى الإعجاب .

وفى سنة ٣٥٠ مرض الخليفة العظيم ومات فى أوائل الخريف ، وخلفه

ابنه الحكم المستنصر ، وقام بأعباء الملك أتم قيام واستقبل من يومه النظر فى تمهيد سلطانه ، وتثقيف ملكه ، وضبط قصوره ، وترتيب أجناده ، وجرى على رسم أبيه ، وولى حجابته جعفراً المصحفى وأهدى إليه يوم ولايته هدية عظيمة . وأصل المصحفى من برابرة بلنسية وكان أبوه عثمان قد أدّب الحكم فأزلف ذلك جعفراً عنده وأدناه ، وقد صرّفه الحكم قبل خلافته فى الأعمال، وقدّمه إلى الكور ، وولاه جزيرة ميورقة ، ثم استكتبه وهو ولى عهد ، فلما أفضت إليه الخلافة واستوزره أمضاه مع ذلك على كتابته الخاصة ، وضم إليه بعد مدة ولاية الشرطة .

وكان بلاط ليون و بلاط نافار يؤملان أن يجدا فى وفاة الناصر طريقة للتخلص من شروط المعاهدة السابق عقدها معه ، ورفع وصاية المسلمين عنهما ، وبدا لهما أن الفرصة سانحة ، فاضطر الحكم اضطراراً إلى محاربة ليون ونافار وقشتالة وأرغمها على طلب الصلح ، وطال أمد الصلح لوقوع الخلاف بين ملوك المسيحيين فى الشمال وأمرائهم ، ومن أعظم فتوحات الحكم فتح قُلُمْرِيَةَ من بلاد البشكنس على يد غالب قائده .

ولم يكن الحكم بالرجل الضعيف أو القليل الشعور بالتبعة ، ولكنه كان كثيرا الاشتغال بمطالعاته إلى حد أنها ألهته عن الولع بالغزوات والفتوح، على أن حبه للسلام لم يضر بالحكومة كثيرا إذا كان فيه جانب من قدرة

أبيه الناصر يمكنه من فرض إرادته وقيادة الجيوش إذا استلزم الأمر ، وسرعان ما انتهت الحرب بينه و بين المسيحيين فى الشمال بالصلح لأن هيبة والده عبد الرحمن كانت قد ملأت قلوبهم رعبا ، ولذلك خلا الجَو للحكم للاستمتاع بالدراسة والبحث .

وقد كان أكثر الخلفاء والأمراء الأمويين من المستنيرين المثقفين ، ولكن الحكم كان أغزرهم علما ، وأوسعهم اطلاعا ، وأرسخهم قدما فى الأدب والتاريخ ومعرفة الأنساب والدراية بالكتب والمؤلفات ، وهو لم يرتفع إلى حكمة مرقس اورلياس أو ورع عمر بن عبد العزيز ولكنه كان أعلم أمراء الأندلس ، ومن أحسنهم أخلاقا ، وأشدهم توقيرا للعلماء ومعرفة بأقدارهم ومكانتهم ، وبرًّا بهم وتوسعةً عليهم ، وأكثرهم بحثاً عن نفائس المؤلفات ونادرها يبعث فيها إلى الأقطار والبلدان و يبذل فى اعلاقها ودفاترها أنفس الأثمان ، ونفق ذلك لديه فحملت إليه الكتب من كل ناحية حتى غصت بها بيوته ، وضاقت عنها خزائنه ، وكان يدعو العلماء و رواة الحديث من جميع الآفاق و يشاهد مجالسهم و يسمع منهم و يروى عنهم ، ولم يسمع فى الإسلام بخليفة بلغ مبلغ الحكم فى اقتناء الكتب والدواوين و إيثارها والتهمم بها ، وأفاد على العلم ونوّه بأهله ، و رغّب الناس فى طلبه ، ووصلت عطاياه وصِلاته إلى فقهاء الأمصار النائية عنه ، و بعث إلى أبى الفرج الأصفهانى القرشى المروانى ألف دينار عيناً ذهباً ، وخاطبه يلتمس منه نسخة

من كتابه الذى ألفه فى الأغانى ، فأرسل إليه أبو الفرج نسخة حسنة منقحة قبل أن يظهر الكتاب لأهل العراق أو ينسخه أحد منهم ، وكان له ورّاقون بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التواليف و رجال يوجههم فى طلبها ، وكان مع هذا شديد العناية بكتبه والتصحيح لها ، وقلما تجد له كتابا كان فى خزائنه إلا وله فيه قراءة ونظر من إى فن كان من فنون العلم ، وكان يكتب فيه بخطه إما فى أوله أو فى آخره أو فى تضاعيفه نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به ويذكر أنساب الرواة له ، ويأتى من ذلك بغرائب لا توجد إلا عنده لكثرة مطالعته ، وعنايته بهذا الفن ، وكان موثوقا به ، مأمونا عليه حتى صار كل ما كتبه حجة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم ينقلون من خطه ويحاضرون به ، وكثر تحرك الناس فى زمانه إلى قراءة كتب الأوائل ، وتعلم مذاهبهم ، وأم العلماء بلاطه وعشوا إلى ضوء ناره ، وحتى الفلاسفة استطاعوا فى ظله أن يتابعوا بحوثهم ، وكثرت المدارس ، وكانت جامعة قرطبة من أشهر جامعات العالم ، ففى الجامع الكبير كان يلقى المحاضرات أمثال أبى بكر بن معاوية القرشى معلم الحديث ويملى أبو على القالى البغدادى أماليه ، ويلقى ابن القوطية محاضرات فى النحو ، وكان الطلبة يعدون بالألوف وكان أكثرهم يقبلون على دراسة الفقه لأنها كانت السبيل إلى الوظائف التى تدر الربح وبلغ من جِد الحكم وعزوفه عن اللهو أنه رام قطع الخمر من الأندلس ، فأمر بإراقتها وشاور فى استئصال شجرة العنب من

جميع أعماله ، فقيل له إنهم يعملونها من التين وغيره فتوقف عن ذلك ، وبلغت الدولة فى عهده النهاية فى السرو والجلالة والكمال والأبهة .

وقد ولى الحكم الخلافة وهو ابن سبع وأربعين سنة وقيل ابن ثمان وأربعين سنة ، وقد استغرقت خلافة أبيه الطويلة عمره حتى كان يقول له مداعباً « لقد طولنا عليك ياأبا العاصى » ولم يرزق الحكم ولدا قبل تقلده الخلافة بل كان قد يئس من الأولاد ، وفى سنة ٣٥١ ولد له ولد ذكر من حظيته « صبح » فسماه عبد الرحمن وسر به سرورا عظيما ، ونظم الشعراء القصائد فى التهنئة بقدومه والتعبير عن سرورهم وأكثروا فى ذلك . ولما بشر بعد ذلك يوما باشتمال جاريته صبح على حمل وكان جعفر المصحفى بين يديه فارتجل أبياتاً من الشعر منها :

مرجى للخلافة وهوماء ومأمول لآمال كرام

وفى سنة ٣٥٣ ولد هشام بن الحكم ، فلما بشر الخليفة الحكم بطلوعه وجعفر المصحفى عنده ارتاح لارتياحه وقال على البديهة :

اطّلع البدر من حجابه واطرد السيف من قرابه
وجاءنا وارث المعانى ليثبت الملك فى نصابه
بشرنا سيد البرايا بنعمة الله فى كتابه
لو كنت أعطى البشير نفسى لم أقض حقا لما أتى به

وسمت مكانة السيدة صبح فى نفس الخليفة الحكم ، وعظمت سيطرتها

عليه وقوى امتلاكها لقلبه ، وفى سنة ٣٥٦ أرادت أن تعين وكيلا لأملاك ابنها عبد الرحمن ، وأبلغت الحكم هذه الرغبة ، فأوصى الحكم حاجبه المصحفى بالبحث عن من يصلح لهذا المركز ، ووجد المصحفى أن الفرصة سانحة لتحقيق ما وعد به القاضى محمد بن اسحق من نقل ابن أبى عامر فرشحه مع آخرين للوكالة ، وكان الاختيار متروكا للسيدة صبح ، فلما عرض عليها المرشحون استرعى نظرها ابن أبى عامر بطلعته البهية وما يتراءى على معارف وجهه من دلائل الرجولة الكاملة ، والعزم الناهض ، وتوسمت فيه الكفاية ، وكان ابن أبى عامر يعرف مالها من سلطان قاهر ، ودولة آمرة ، ومكانة شماء فى نفس الحكم فحشد كل قوته ليترك فى نفسها من ناحيته أجمل أثر ، واختارته السيدة صبح من بين المرشحين ، وأقر الحكم اختيارها ونصبه لخدمتها وخدمة ابنها عبد الرحمن ، وأجرى عليه فى ذلك الوقت خمسة عشر دينارا فى الشهر مرتبا له ، ولم يكن ابن أبى عامر بطبيعته حِدْثَ نساء ، أو ممن يشغلون بالهم بالعشق والمغازلة ، ولكنه كان حرياً بالحظوة عند النساء لطلاقة لسانه ، وإيمانه بنفسه ، ووسامة طلعته ، وقد أدرك بحسه المرهف ، وزكانته المتوقدة أن خير سبيل لتحقيق أطماعه البعيدة هو أن يتخذ السيدة صبح زلفى إلى غاياته ، فبذل جهده فى استمالتها إليه ، واستنباط المنافذ إلى قلبها ، وكان ينتزع لذلك المناسبات ويتصيد الأسباب ، وكانت هذه السيدة على ما وصلت إليه من نفوذ تشعر فى صميم نفسها بأنها فى حاجة دائمة إلى

حرارة العطف ، وعين الرعاية ، وكلمة الإعجاب والرضى ، لأنها أخذت من أهلها قسرا ، وقد كان زوجها وسيدها الحكم رجلا متقدما فى السن ، منهمكا فى البحث ، غير ميال إلى اللهو ، والنساء فى مثل هذه الحالة يَخشين الملل ، ويشعرن بالفراغ ، ويسرهن أن يجدن ما يزيل وحشتهن ، والسيدة صبح كسائر النساء تحكم على كل ما يحدث بما يلائم أحاسيسها الشخصية المباشرة ، فأخذت تشيد بمناقب ابن أبى عامر وتمتدح سجاياه ، واختارته وكيلا لأملاكها ، وأصبحت تجد فى حديثه متاعاً لقلبها وغذاءً لروحها ، وبعد سبعة أشهر من اختياره وكيلاً لعبد الرحمن عين للنظر فى أمانة دار السكة ، وبفضل هذه الوظيفة أصبح فى عهدته مبالغ طائلة من الأموال يستطيع أن يصطنع بها الأنصار ، ويخلق الأصدقاء والأتباع ، وتوثقت العلاقات بينه وبين الكثيرين من الرجال البارزين فى الحياة العامة ، وكان أكثرهم يعيشون عيشة بذخ وإسراف ، وكان أسلوب حياتهم يجعلهم هدفا للأزمات المالية المتوالية ، وكان محمد بن أبى عامر لا يحجم عن إنقاذ موقف من نفدت موارده منهم ، روى عنه محمد بن أفلح — وهو من موالى الخليفة الحكم — قال «دفعت إلى مالا أطيقه من نفقة عرس ابنة لى ولم يبق معى سوى لجام محلى ثقيل الوزن ردىء العيار ، وكان عندى لزينتى أيام المراكب ، وتقاعد فيه التجار فانقطع بى أملى ، وضاقت بى الأسباب ، فوقع فى نفسى قصد بن أبى عامر صاحب السكة للذائع من كرمه ، فقصدته وعرّفته رغبتى فسارع

بأطلق وجه ، وقال سر إلىّ بدار الضرب فجئته وأوصلنى إلى نفسه والدراهم المطبوعة بين يديه وأومأ إلىّ فأخرجت اللجام وأنا خائف من صرفه لسقوط عياره ، فوالله ما نظر إليه ولا عايره وراطلنى والله باللجام بحدائده وسيوره ، فأخذت ما لم يدر فى وهمى أنى أظفر بمثله وعظم ابن أبى عامر فى عينى ، وقمت عنه وحجرى ملآن ولا أصدق بما حصلت عليه فجهزت بنتى وفضل لى شئ يكفينى وقل مولاى الحكم فى عينى ، وأحببت ابن أبى عامر حتى لو دعانى إلى معصية الحكم وهو مالك رقى وإمامى لما قعدت عنه » .

وبهذا الأسلوب استطاع ابن أبى عامر أن يكوّن حزبا مخلصا له ، وكان يرى من واجبه أن يلبى نزوات السيدة صبح ويستجيب لأهوائها، وكانت له فى ذلك حيل عجيبة وطرائق مبتكرة ، صاغ لها مرة أُنموذج قصر من الفضة الخالصة وبالغ فى إتقانه وأنفق فيه مالا جسيما فجاء بديعاً لم تر العيون أعجب منه ، وحمله على رؤوس الرجال من داره وشاهد منه الناس منظراً رائعاً ، فتحدثوا بشأنه دهراً ، ووقع من قلب السيدة صبح موقعا لا شيء فوقه ، فتزيدت فى بره وتكفلت بشأنه ، وتأكدت العلاقات بينهما ، وأصبحت لا تشبع من سَماع قصصه وأحاديثه ، وتشعر فى غيابه بفراغ عميق ، وهوة ساحقة ، وبلغ استحسانها له حد التوله والولع حتى اتسع المجال للأقاويل والشبه ، ولم يهمل ابن أبى عامر غيرها من نساء الحريم وعمل على أن يأسرهن بسابغ كرمه ، وبارع اتحافه ، ومعسول حديثه ، وحسن لباقته ،

حتى شغفن به ، ولهجن بالثناء عليه ، ولم يستطع الخليفة الحكم أن يفهم الموقف على حقيقته فقال لبعض ثقاته « ما الذى استلطف به هذا الفتى حرمنا حتى ملك قلوبهن مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن حتى صرن لا يصفن إلا هداياه ولا يرضين إلا ما أتاه ؟ إنه لساحر عليم أو خادم لبيب وإنى خائف على ما بيده » .

والواقع أن رئيس السكة كان يخاطر بما فى عهدته من المال مخاطرة غير مأمونة ، فقد كان كريما سخيا ولكن على نفقة الخزانة ، ولما كان رقيه السريع قد أثار حسد الحاسدين لذلك اتهمه أعداؤه عند الخليفة باستلاب أموال السكة وتبديدها ، فأمر الخليفة باستحضاره ليشاهد سلامته وليقدم حسابه ، فأظهر الإسراع إلى ذلك وأسرع إلى صديقه الوزير ابن جدير وشرح له خطورة موقفه وسأله أن يجبر ما عنده من العجز فأسلفه المبلغ المطلوب وحمل المال إليه من وقته فتمم به ما قبله وقدم القصر وأحضر حساباته وأحدث اضطرابا لمتهميه ، وارتفعت عنه الظنة ، وكذّب الحكم ما وقع إليه عنه ، وازداد إعجاباً به ، وأقره على حاله ، ورد ابن أبى عامر المال لجدير من حينه ، ولصق بالحكم وصار فى عداد كفاته ودعائم دولته ، وأغدق الحكم الثناء على رئيس سكته الأمين المستقيم ! وأخذ يسمو به ويرفع من مكانته فعينه وكيلا على المواريث ، واختاره بعد أشهر قاضيا لاشبيلية ، ولما مات عبد الرحمن الصغير عينه وكيلا لهشام ، ثم رقاه بعد

ذلك رئيسا للشرطة الوسطى ، ولم يبلغ ابن أبى عامر سن الواحد والثلاثين حتى كان قد تقلب فى خمس أو ست وظائف من الوظائف الهامة ، فعاش عيشة بذخ وإنفاق ، وبنى لنفسه قصراً نخماً فى الرصافة وكان بابه مفتوحاً لتلقى الوفود وأصحاب الحاجات ، وكان حوله جماعة من المساعدين والكتاب ، وكان لا تفوته فرصة لاستجلاب المدح وخلق الثقة به والتعويل عليه ، وأصبح اسمه على كل لسان ، وأعجب الجميع بكرمه وسمو أخلاقه وصدق رجولته .

ولم يكتف طالب قرطبة الطموح بما وصل إليه وإنما كان يطمح إلى ما وراء ذلك ، ولذا كان يعتقد أنه من اللازم له أن يكون له أصدقاء من رجال الجيش والقواد وسرعان ماأتاحت له الظروف ذلك كما سنرى فى الفصل التالى .

وضع الأساس

حاول الخليفة عبد الرحمن الناصر تثبيت أقدامه وبسط سلطانه فى أصقاع المغرب الأقصى والمغرب الأوسط لأنه كان يهاب اطماع الفاطميين فى الأندلس ثم حدثت بالمغرب الأوسط ثورة خطيرة كادت تعصف بدولة الفاطميين الناشئة وهى ثورة أبى يزيد ، وبعد تغلبهم على تلك الثورة أخذت مطامع الخلفاء الفاطميين تتجه إلى مصر ، ولكن برغم ذلك لم تنقطع الحرب فى المغرب الأقصى بين أنصار الأمويين وأنصار الفاطميين . وفى تاريخ المغرب الأقصى والمغرب الأوسط قبيلتان قويتان لعبتا دوراً هامًّا على المسرح السياسى وسارت بأخبار الحروب التى نشبت بينهما الركبان وحفلت السير والمدونات . وهاتان القبيلتان هما قبيلة صِنْهاجة وقبيلة زِنَاتَة ، وكان يمثل الأولى فى أواخر عهد الناصر زعيمها الكبير زيرى بن مناد ويمثل الثانية محمد بن خزر ، وقد انحازت صِنْهَاجة إلى جانب الفاطميين ، وحالفت زِنَاتَة الأمويين وكان زعيم الأدارسة فى ذلك الوقت هو الحسن بن كنون صاحب مدينة أصيلا وقلعة حجر النسر

من بلاد العدوة ، وكان داهية كثير التقلب ، وقد وجد نفسة بين مطامع دولتين قويتين فأراد أن يستغل الموقف فكان يميل إلى الفريق الذى ترجح كفته ، وكان فى صميم نفسه يؤثر الفاطميين ولكنه كان يخشى فى الوقت نفسه بأس الأمويين لقربهم من بلاده ، فلما خضع المغرب الأقصى لنفوذ الناصر لم ير بأساً فى أن يقدم له الطاعة ، دفعاً للشر ، وحرصاً على المغنم ، وقد كبر على الخليفة المعز أن يتقلص نفوذه من المغرب الأقصى وأن ترفض دعوته قبائل زِنَاتَة ، فبعث فى سنة ٣٤٧ قائده جوهر الصقلى فى جيش ضخم من قبائل كتامة وصِنْهَاجة ومعه الزعيم زيرى بن مناد وأمره أن يقتل أنصار الأمويين وأن يمد رواق سلطانه على المغرب الأقصى ، ففتح جوهر المعاقل ، واقتحم المدن ، ودوّخ أقطار المغرب ، وأثخن فيها ، وقتل حماتها ، وقطع الدعوة للأمويين ، وردها للفاطميين ، ولم يسع الحسن بن كنون إلا مبايعته والدخول فى طاعته ، ولكن لما انصرف جوهر بجموعه الجرارة نكث الحسن بيعته للفاطميين وعاد إلى بيعة بنى مروان .

ومن الرجال البارزين الذين اشتهروا فى ذلك العصر وعرفوا بالشجاعة جعفر بن على بن حمدون المعروف بابن الأندلسى ، وقد خلد ذكره ابن هانئ فى أماديحه البليغة وقصائده الحسان ، وكان أبوه علىّ قد ترك الأندلس ، واتصل بعبيد الله المهدى الفاطمى وأبى عبد الله الشيعى داعية الدولة الفاطمية

قبل قيامها ، فلما استفحل ملك الفاطميين أخذوا بضبعه ورقوه إلى الرتب ، ولما اختط أبو القاسم بن عبيد الله وولى عهده سنة ٣١٥ مدينة المسيلة استعمل علىّ بن حمدون على بنائها ولما تم بناؤها عقد له على الزاب وأنزله بها ، ونشأ ولداه جعفر ويحيي بدار أبي القاسم ولى عهد المهدى ، ومات علىّ بن حمدون سنة ٣٣٤ فى أثناء ثورة أبي يزيد ، فلما انقضت الفتنة عقد الخليفة الفاطمى المنصور على المسيلة والزاب لجعفر بن على وأنزله بها وأخاه يحيي وسائر إخوته فاستجدوا بها سلطاناً ودولة و بنوا القصور والمتنزهات وعظم بها ملكهم وقصده العلماء والشعراء ، ونشأت بين جعفر وزعيم صِنْهَاجة الكبير زيرى بن مناد عداوة وخصومة جرّتها المنافسة والمساماة فى الدولة ، وتمكن زيرى بدهائه من أن يفسد ما بين جعفر والخليفة الفاطمى إفساداً شديداً ، واضطر جعفر أن ينضوى تحت لواء زعيم زِنَاتَة محمد بن خزر أمير مغراوة ، وكان المعز يعد العدة لدخول مصر التى فتحها قائده جوهر سنة ٣٥٨ فاستقدم جعفراً ، فاستراب جعفر وخشى على حياته ومال بعسا كره إلى زِنَاتَة وانقطعت العلاقات بينه و بين صِنهاجة والخليفة المعز ، ودعا جعفر إلى نقض طاعة الخليفة المعز والدعاء للحكم المستنصر ، وناهضهم زيرى الحرب ، ولم يكن قد أتم أهبته واستكمل تعبئة جيوشه ، وكبا به فرسه وتمكن خصومه من فرسان زناتة من الإجهاز عليه وحز رأسه ، و بعثوا به مع جماعة من وجوه زناتة إلى الحكم المستنصر فكرّم الحكم وفادتهم ونصب رأس زيرى بسوق قرطبة ، وأسنى

جوائز الوفد ، ورفع منزلة يحيي بن على وأذن لجعفر فى اللحاق بسدته، وشرع يوسف بن زيرى المعروف ببلقين يستعد لمنازلة زِناتة والأخذ بثأر أبيه زيرى، ورأى جعفر بن على عجز أمراء زِناتة عن مواجهته فأوجس خيفة ، وألطف الحيلة فى الفرار ضَنًّا بنفسه ، وشحن السفن بما معه من المال والمتاع والرقيق والحشم وذخيرة السلطان ، وأجاز البحر ، ولحق بسدة الخلافة المروانية بقرطبة وأجاز معه عظماء الزناتيين لتقديم طاعتهم للحكم ، وأكرم الحكم مثواهم وأجمل وفادتهم ، وأحسن منصرفهم ، وأكدوا تشيعهم له ، وعملهم على بث دعوته ، وتخلف عنهم بالحضرة أولاد على بن حمدون ، وأقاموا بسدة الخلافة ، ونظموا فى طبقات الوزراء ، وأجريت عليهم سنيات الأرزاق ، وأصبحوا من أولياء الدولة البارزين ، والتقى بلقين بن زيرى بمحمد بن خزر أمير زِناتة وهزمه هزيمة شنعاء كما كان متوقعاً ، وقتل الكثيرين من أهله ورجاله ، واتكأ محمد بن خزر – لمّا أحيط به – على سيفه ، وقتل به نفسه أنفة من أن يملكه بلقين ، وملك بلقين فى إثر ذلك المغرب ، وقتل زناتة وهدم مدينة البصرة ، وهاجم سَبتة ، وعجز عن الاستيلاء عليها ، وجرى الحسن بن كنون الإدريسى على خطته التقليدية ، فلما رأى انتصار بلقين بن زيرى أعطاه الطاعة وانحرف عن الأمويين ، وساء سلوكه الحكم المستنصر وأغضبه ، وكان فى وسع الحكم أن ينفض يده فى هذه الفترة من أحوال المغرب ، فقد كان الخليفة المعز قد بارح المنصورية – مستقر حكمه – إلى سردانية فى سنة ٣٦١

ليتجهز لدخول مصر والإقامة على شواطئ النيل ، وعقد العهد لبلقين على المغرب الأقصى والأوسط وبذلك بعد عن الأندلس شبح الخطر الفاطمى ، ولكن كبرياء الحكم أبت له ذلك ، فلما ارتد بلقين بجيوشه ، أمر الحكم قائده محمد بن القاسم - ويعرف باسم ابن طملس - أن يقوم بحملة تأديبية لإخضاع الحسن بن كنون وإرغامه وذلك فى أوائل سنة ٣٦١ ، وجاز القاسم من الجزيرة الخضراء إلى سبتة فى جيش كثيف وعدة كاملة ، وزحف إلى قتاله الحسن بن كنون فى قبائل البربر والتقى الجمعان بناحية من أحواز طنجة وهزم الحسن ، ولم يستطع دخول طنجة فافتتحها القاسم واستولى كذلك على مدينة أصيلا وغيرها من المدن التابعة للحسن بن كنون ، ولكن الحظ لم يصاحب الأمويين إلى النهاية فقد استدعى الحسن رجاله من كل ناحية ، واستنهض هممهم ، وتقدم إلى طنجة لمهاجمة القاسم ، والتقى الجمعان وكانت بينهما حروب عظيمة قتل فيها محمد بن القاسم قائد جيوش الحكم وقتل معه خلق كثيرون، وفرّ الباقون ودخلوا سبتة وتحصنوا بها وكتبوا إلى الحكم يصفون له خطورة الموقف واشتداد الأزمة ، ورفع سائر الأمراء الأدارسة علم الثورة ، فأهم الأمر الحكم واستدعى قائده غالبا ، وكان أقدر قواده وأشجعهم وأحزمهم ، وأعطاه أموالاً جليلة وجيوشاً وافرة ، وأمره بقتال الأدارسة واستنزالهم من معاقلهم ، وقال له عند وداعه : « ياغالب ! سر مسير من لا إذن له بالرجوع حيًّا إلا منصوراً أو ميتاً معذوراً ، ولا تشح بالمال وابسط يدك به يتبعك الناس » فخرج

غالب بالجيوش والعدد والأموال من قرطبة فى سنة ٣٦٢ فاتصل خبر قدومه بالحسن بن كنون نخاف منه ، وأخلى مدينة البصرة ، وحمل منها حرمه وجميع أمواله إلى حصن حجر النسر القريب من سبتة ، واتخذه معقلاً يتحصن فيه لمنعته ، وجاز غالب البحر من الجزيرة الخضراء إلى قصر مصمودة ، وتلقاه هناك الحسن بجيوشه فقاتله أياماً ، وأخرج غالب الأموال فبعث بها إلى رؤساء البربر الذين مع الحسن ووعدهم وأمّنهم ففروا عن الحسن وأسلموه حتى لم يبق معه إلا خاصة رجاله ، فسار إلى حصن حجر النسر وتبعه غالب وحاصره ونزل بجميع جيوشه عليه وقطع عنه الموارد ، وأمده الحكم غالبا بالعرب الذين فى بلاد الأندلس كافة ورجال الثغور ، واشتد الحصار على الحسن ، وسرّ الخليفة لأنباء الانتصارات المتعاقبة التى كانت تصله ، ولكنه لما وقف على كثرة النقود التى أنفقها غالب فى استمالة زعماء البربر وجد أن غالباً قد اتبع حرفية وصيته ، ولما كانت تلك المصروفات قد تجاوزت الحدود المقدرة لذلك تسرّب الشك إلى نفس الخليفة ، وخشى أن تكون تلك النفقات الضخمة قد دخلت فى جيوب قواده ، وأصبح الموقف يستلزم إيفاد رجل حكيم حسن الدراية بالمسائل المالية واسع الخبرة بشؤون الإدارة مؤتمن نزيه ليحدّ من إسراف غالب ، ويوقف تلاعب القواد الذين يبددون أموال الدولة ، وينتهبون خزائنها ، ووقع اختيار الحكم على محمد بن أبى عامر ليقوم بأعباء هذه المهمة الشاقة ، فعينه كبيراً لقضاة المغرب الأقصى ، وأمره بمراقبة أعمال القائد العام وبخاصة من الناحية

المالية ، وأصدر أوامره إلى القواد والمدنيين ليستشيروا ابن أبى عامر فى كل صغيرة وكبيرة ، وأوصاهم بألاّ يقطعوا فى أمر دون رأيه ، وهكذا وجد ابن أبى عامر نفسه فى بهرة الجيوش و بين القواد ورجال الحرب لأول مرة فى حياته، وكانت المهمة التى أنيطت به شاقة معقدة ، فقد كانت مصلحته الخاصة تحضه على أن يتقرب إلى القواد و يخطب ودهم لتحقيق ما يختلج فى نفسه من المطامع ولكنه قد أرسل ليكون عيناً عليهم ، ولتكون له سلطة تضايقهم ، وتحدّ من نفوذهم ، وتعترض مطامعهم ، ولكن ابن أبى عامر كان مستكملاً أهبته ، مزوداً بأسلحته ، له من حسه المتفتح ، وحيويته المشبوبة ، وتفكيره الناضج ما يجعله أهلاً لتناول كل موقف ، وتذليل كل معضلة ، وقد مكّنه سحره الذى لا يقاوم من تألف القلوب ، و إحراز الاحترام ، وعمل على تقريب البربر ، وا كتساب ثقتهم ، فكان يجاريهم فى تفكيرهم و يتعرف عقليتهم ، و يتغلغل إلى صميم نفوسهم ، وعرف كيف يخلب لبهم ، و يستطير جنانهم بمنح اللهى ، و إغداق العطايا على رؤسائهم ، والعناية بالمظاهر الفخمة ، وأعجب رجال الجيش بلباقته و براعته فى تصريف الأمور .

وكان ممن أمدّ بهم الحكم غالباً يحيي بن محمد التجيبي حاكم الثغور الشمالية وكان رجاله من الجنود الأشداء المدربين ، وقد تلاحقت على غالب هذه الامدادات فى أوائل سنة ٣٦٣ فبالغ فى تشديد الحصار على الحسن بن كنون ، واضطر الحسن فى منتصف السنة إلى طلب الأمان على نفسه وأهله

وماله ورجاله ، فأجابه غالب إلى ذلك وعاهده عليه ، فنزل الحسن بأهله ورجاله وأسلم الحصن إلى غالب ، واستنزل غالب جميع العلويين الذين بأرض العدوة من معاقلهم ، وأخرجهم من أوطانهم ، ولم يترك فى العدوة رئيساً منهم ، وسار إلى مدينة فاس فملكها ، وأتم إخضاع بلاد المغرب وفرق العمال فى جميع النواحى ، وقطع دعوة الفاطميين ، ورد الدعوة إلى الأموية الحكمية وهكذا وقفت أرحاء الحرب ورفرف السلام فى أرجاء المغرب الأقصى ، وخرج غالب من المغرب منصرفاً إلى الأندلس وحمل معه الحسن بن كنون وجميع ملوك الأدارسة فى رمضان سنة ٣٦٣ ، ووصل إلى سبتة وركب البحر واستقر بالجزيرة الخضراء ، وكتب إلى الحكم يعلمه بقدومه وبمن معه من العلويين ، فلما وصل الكتاب إلى الحكم أمر الناس بأن يخرجوا للقائهم ، وركب هو فى جمع عظيم من وجوه أهل دولته فتلقّاهم ، وكان يوم دخولهم قرطبة فى أوائل سنة ٣٦٤ يوماً عظيماً مشهوراً ، وسلم الحسن على الحكم ، فأقبل عليه ، وعفا عنه ، ووفى بعهده ، ووسع له ولرجاله فى العطاء ، وأجرى عليهم الجرايات الكثيرة والخلع الرفيعة ، وأثبت جميع أهله ورجاله فى ديوان العطاء وكانوا سبعمائة رجل أمجاد وأسكنه قرطبة .

وكان دخول غالب قرطبة منتصراً متوجاً بإكليل الغار آخر يوم من أيام الفخار والمجد فى حياة الخليفة الحكم ، فبعد أشهر قلائل أصابه فالج ولزم فراشه ، وترك أكثر شؤون الدولة لحاجبه جعفر المصحفى ، وسرعان ما عُرِف

أن يداً أخرى غير يد الخليفة هى التى تدير دفة السياسة وتحركها ، وكان المصحفى أكثر تحرياً للاقتصاد من مولاه ، وأدرك أن إدارة الولايات الإفريقية وإعالة الأمراء الأدارسة والإنفاق على بنى حمدون تكلف الدولة مالاً كثيراً ، فاتفق مع الأدارسة على أن يعودوا إلى المغرب وردهم إلى تونس حيث ذهبوا منها إلى مصر ونزلوا على الخليفة العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله ، وأقبل عليهم نزار وبالغ فى إكرامهم ووعد الحسن النصرة والأخذ بثأره ، وأقام عنده مدة طويلة . ولنترك الحسن بن كنون الآن مقيما بمصر فى كنف العزيز بالله وهو يمنى نفسه باستعادة أملاكه ، واسترداد سلطانه ، شأن الملوك فى المنفى وسنلقاه مرة أخرى فى أحد فصول هذا الكتاب القادمة .

واستدعى من إفريقية الوزير يحيي بن محمد التُّجيبى ، وكان منذ رحيل غالب يشرف على أملاك الدولة الإفريقية ، وعهد فى ذلك إلى الأميرين جعفر ويحيي ولدى على بن حمدون ، ولم يكن الاقتصاد وحده هو الذى أملى عليه هذا الاجراء ، وإنما تحرج الأحوال فى الثغور الشمالية ، فقد شجع المسيحيين فى الشمال على تجديد المناوشات والعودة إلى المشاغبة ما بلغهم من مرض الخليفة الحكم وتغيب أقوى جيوش الخليفة فى الجنوب ، ورد المصحفى يحيي بن محمد إلى ولايته السابقة .

وأوقف الحكم أيامه الباقية على تحرى أقوم الوسائل للمحافظة على نقل الخلافة إلى ابنه هشام الذى كان لا يزال غلاماً ناشئاً لم يبلغ الحلم ، وطالما

شغلت قلبه هذه المسألة وكدّرت عليه صفو حياته وشابت أيام سروره ، فهل تقبل الأمة خلافة غلام أو تؤثر نقل الخلافة إلى أحد أعمامه ؟ وكان هذا القلق الذى ساوره طبيعيا ، فلم يسبق أن جلس على عرش الخلافة الأموية خليفة لم يبلغ سن الرشد ، ومسألة الوصاية لم تكن ذائعة ولا مقبولة عند العرب ، ولكن الحكم أراد ألا يرث الخلافة غير ابنه ، ووراثة العرش فى الحكومات الأوتقراطية من المعضلات الشائكة ، وكثيراً ما أثارت الإحن بين الإخوة والأقارب وحركت الثورات ، وأحدثت الانقلابات ، وكان العقلاء من خلفاء بنى أمية فى مثل هذا الموقف يخضعون الحب البنوى لمصالح الدولة ، وكان للحكم ثلاثة إخوة من أولاد الناصر يصلحون لولاية الملك وهم شقيقه عبدالعزيز والأصبغ ، والمغيرة كما كان هناك جماعة من أولاد الخلفاء كهولاً وشباناً يستطيعون أن يستقلوا بالعبء وينهضوا به ، ولكن الحكم خالف الحزم ، وتنكب الطريق المستقيم ، واستهواه حب الولد ، فنفس عليهم سلطانه ، وتخطاهم جميعاً إلى اختيار نجله ، وكان هناك نبوءة تقول : « لا يزال ملك بنى أمية بالأندلس فى إقبال ودوام ما توارثه الأبناء عن الآباء فإذا انتقل إلى الإخوة وتوارثوه فيما بينهم أدبر وانصرم » وقد تركت هذه النبوءة فى نفس الحكم أثراً قوياً ، ووجهت تفكيره ، وكان الحكم رجلاً صافى السريرة طيب القلب ، ولكنه لم يكن لامع الذكاء ولا بعيد الغور ، وكان جيد الفهم قوى الذاكرة دائم الاطلاع ميالا إلى السلام والمهادنة ومن ثم حبه الشديد لاقتناء الكتب

والإقبال عليها فهذا مما يدل على هدوء مزاجه ونقاء نفسه ، لأن الكتب لا تجادل ولا تحاور ولا تقاوم ولا تناضل ولا تتطلب نشاطاً ولا تستدعى حركة . ولم يكن الحكم مستقل التفكير وثّاب الخطرات واسع الخيال متشوفاً للمجهول ، وإنما كان يفكر فى الحدود المعلومة والمسائل المطروقة ، ولذا لا يستغرب منه أن يسير تفكيره فى توريث ابنه الخلافة على هذا النمط ، فلم يكن له طاقة على نقل المسألة إلى أفق أوسع ، والنظر إليها من زاوية أخرى. وقد نلتمس له العذر من الناحية الإنسانية العاطفية ، ولكنه أخطأ من الوجهة السياسية خطأً جسيماً ، وعرض ملك آبائه للضياع ، وجعله نهزة لمطامع الطامعين وهذا الخطأ الذى تورط فيه هذا الرجل الفاضل وقع من قبل فيه الإمبراطور الرومانى العظيم مرقس أورلياس صاحب كتاب التأملات ، فقد فرض على الدولة الرومانية ابنه كومودوس ولم يكن يصلح بحال لتولى منصب الأباطرة الخطير ، ولا تزال هذه المسألة من غرائب التاريخ وعجائب الأقدار . وقد كان الحكم كثيرا ما ينتقد سياسة العباسيين من هذه الناحية ولكنه لم يستطع أن يتجنب عثرتهم .

ورأى الخليفة أن خير ضمان لتوريث ابنه العرش هو المبادرة إلى أخذ البيعة له ، فدعا أعيان الدولة ووجوه الأمة فى منتصف سنة ٣٦٤ وفى اليوم الموعود أعلن للمجتمعين عزمه على نقل الخلافة إلى ولده هشام ودعاهم إلى مبايعته ، ولم يجترئ أحد على الخلاف ، وأمر الخليفة ابن أبى عامر وميسوراً

ـ أحد معتوقى السيدة صبح ـ أن يرسلا وثائق بذلك إلى مختلف الأنحاء فى الأندلس وإفريقية ، ولم يمتنع أحد عن البيعة خشية إغضاب الخليفة المحبوب .

و بعد أن عاد ابن أبى عامر مع غالب ووفق فى المهمة التى أناطها به الحكم حاز إعجاب الحكم وتقديره وكان الحكم من قبل يرى فى بردى هذا الشاب همة وفطنة و يعتقد أن له مستقبلا حافلا ، ولكن بعد عودته من المغرب ازداد به إعجاباً وجعل يؤثره و يقدمه وأضاف إليه النظر فى الحشم ، ولما أصبح هشام ولى العهد عظمت مكانة ابن أبى عامر لصلته بهشام ومكانته من السيدة صبح والدته ، و بلغت عنايتها به حدا لا يعرف له نظير ، وبدا لها أن السفينة فى حاجة إلى من يقودها بين العواصف والأنواء ، وأدركت ما ينتظر ابنها من الحوادث الجليلة فازدادت تعلقاً بابن أبى عامر واعتماداً عليه وثقة به ، وأصبح ابن أبى عامر من كبار رجال الدولة ودعائم الخلافة ، وليس من المستبعد أن السيدة صبح كانت عاشقة مفتونة قبل أن تكون أمًّا مخلصة ، و ربما كانت عنايتها بمستقبل صفيها ابن أبى عامر وتمهيد السبيل لبناء مجده ، ورفع منزلته أكثر من عنايتها بشؤون ولدها الناشئ الذى كان فى حاجة ماسة إلى التعهد الصالح ، والنصيحة المخلصة ، والتوجيه الرشيد ، وتجنيبه مزالق السلطة الواسعة وحمايته من كيد الكائدين وطمع الطامعين .

وكان فى ابن أبى عامر قوة بركانية عاتية ، ونشاط هائل جبار ، ومثل

هذه القدرة العظيمة لا تجد لها مخرجا مناسباً فى الأعمال الكتابية والشؤون الادارية ، بل هى فى حاجة إلى ميدان واسع وأفق رحيب لتظهر فى جلالها الرائع ، وتدفقها وانبعاثها ، ومثل ابن ابى عامر لا يستطيع أن يعيش عيشة الضيق والكفاف ، وطبيعته تفرض عليه أن يعيش مبذراً فى موارده باسطاً يده فهو فى حاجة إلى البذخ والكرم والسماحة واصطناع الأنصار واصطياد القلوب والاستعانة بمختلف العناصر وتقريبها بطريق البذل والعطاء ، وهو لا يحسن العمل إلا محفوفاً بالوفرة الزاخرة والمال العميم ، ومما يؤثر عنه قوله وقد نقل عن نمط الفقهاء والقضاة إلى خواص الدولة : « قد قطعت الزُّنَّار ونبذت الرهبانية » وأصبح قصره فى الرصافة قبلة القصاد يعشون الى ضوء ناره ويرجون قضاء حاجاتهم على يديه . وعظم قدره وتوطدت مكانته ، وكانت صلاته حسنة بجميع الرجال البارزين وفى طليعتهم المصحفى الحاجب وأكبر رجال الدولة وأعظمهم نفوذاً فى عهد الحكم .

بَدْءُ البِنَاءِ

اتصلت علة الخليفة الحكم من الفالج حتى اضعفت بنيته واستنزفته حيويته فأصعد آخر أنفاسه بين يدى الصقلبيين الخصيين فائق المعروف بالنظامى صاحب البرد والطراز وجؤذر صاحب الصاغة والبيازرة وذلك ليلة الأحد لثلاث خلون من صفر سنة ٣٦٦ ، وتحققت المخاوف التى كانت تساور الحكم من ناحية اعتلاء ابنه هشام عرش الخلافة ، فقد كان الخصيان يعرفان أن الناس تنظر بعين الارتياب إلى الانحراف عن النظام التقليدى للخلافة بإسنادها إلى أمير لم يبلغ سن الرشد ولم تظهر شخصيته أو تستقر شهرته ، ومجرد حق الوراثة لا يكفى لتسويغ ارتقاء العرش ، ولا يدرأ الأخطار التى تنجم عن نقص الخبرة وقلة الدراية ، ولم يكن هناك سوابق تبرر ذلك ، وحاول الخصيان أن يستغلا لمصلحتهما ما يعرفانه من تذمر الناس ، واسترابتهم بمثل هذه الحالة ، وليس من المستغرب أن يستسيغ الخيانة الخصيان الناشئان فى القصور بين الدسائس والمكائد وأن يجدا فيها عوضاً عما أنزله بهما المجتمع البشرى من العقوبة

الصارمة والحرمان المؤلم ، وكان خصيان القصر ينتهزون كل فرصة ليستزيدوا قوتهم ، وينموا أموالهم ، ويوطدوا أقدامهم ، وكان عددهم يقارب الألف ولهم جاه ونفوذ وثروات طائلة وضياع واسعة ، وكانوا خاصة الخليفة الناصر والحكم بعده ، وكانوا ينتهبون الأموال وينتهكون الحرمات ، ولا ينالهم القانون ، ولا تتعرض لهم الشرطة ، وظهرت منهم فى عهد الحكم أمور قبيحة أغضى عنها مع إيثاره العدل ، واطراحه الجور ، وكان يقول عنهم : « هم أمناؤنا وثقاتنا على الحرم فينبغى للرعية أن تلين لهم ، وترفق فى معاملتهم فتسلم من معرتهم ، إذ ليس يمكننا فى كل وقت الإنكار عليهم » وقد زادهم ذلك غروراً وكبرياء وطغياناً ، وأصبح فائق وجؤذر يعتقدان أن اختيار الخليفة من حقهما وحدهما ، ولم يكن من رأيهما اختيار هشام ، لأنهما كانا يعرفان أنه إذا ارتقى هشام عرش الخلافة عجز بطبيعة الحال عن تدبير الأمور ، وسياسة الدولة ، وآل الأمر إلى المصحفى وغيره من الوزراء ، ولم يكن ما بينهما وبين المصحفى عامراً ، فاذا صار إليه الأمر تقلص نفوذهما . وحقيقة أن البلاد أعطت البيعة وأقسمت يمين الطاعة ، ولكن يمين الطاعة السياسى مما يسهل التحلل منه ، وكانا يعتقدان أنهما يستطيعان أن يستردا حب الشعب وثقة الناس إذا قلدا الخلافة أميراً أكبر سناً وأنضج تجربة ، يضاف إلى ذلك أن مثل هذا الأمير كان سيشعر بأنه مدين لهما فيمكّن لهما فى الحكم ويبسط من نفوذهما ،

وكان عبد العزيز شقيق الحكم قد تقدمه بمديدة ، وأخوه الأصبغ قد أصبح غير صالح للخلافة . ولذا وقع اختيارهما على المغيرة بن الناصر وكان عمره سبعاً وعشرين سنة على أن يقر ابن أخيه هشاماً على العهد بعده ، فيمنّا على المغيرة بسوق الخلافة إليه ، ويفيا لمولاهما بارتقاب كبر ولده ، ويكون الملك فى أيديهما. ولما اتفقا على ذلك قال جؤذر لفائق « ينبغى أن نحضر جعفر بن عثمان الحاجب ونضرب عنقه فبذلك يتم أمرنا » فقال له فائق « سبحان الله يا أخى تشير بقتل كاتب مولانا وشيخ من مشيختنا دون ذنب ، ولعله لا يخالفنا فيما نريده مع افتتاحنا الأمر بسفك الدم » فقال له جؤذر « هو والله ما أقول لك » ، ثم بعثا إلى المصحفى ونعيا إليه الحكم وعرّفاه برأيهما فى المغيرة ، وحاولا أن يجذباه إلى صفهما بمعسول الكلم ، وعرضا عليه خطتهما ، وطلبا معاونته ، وكان المصحفى لا يرى هذا الرأى ويعلم أن فيه ضياعه ، ولكنه كان يعرف الرجلين وما يستطيعانه فتظاهر بالموافقة والتأييد وقال لهما « هذا والله أسدّ رأى ، وأوفق عمل ، والأمر أمركما ، وأنا وغيرى فيه تبع لكما ، فاعزما على ما أردتما ، واستعينا بمشورة المشيخة فهى أنفى للخلاف ، وأنا أسير إلى الباب فأضبطه بنفسى وأنفذ أمركما إلىّ بما شئتما » وخرج عنهما فضبط باب القصر ، وتقدم فى إحضار أصحابه الهاشمية مثل زياد بن أفلح مولى الحكم وقاسم ابن محمد (القائد الذى قتل فى محاربة الحسن بن كنون) ومحمد بن أبى عامر

وهشام بن محمد بن عثمان ـ من أبناء عم المصحفى ـ وأشباههم ، واستدعى بنى بَرْزَال إذ كانوا بطانته من سائر الجند ، واستحضر سائر قواد الأجناد الأحرار ، فاجتمع له من هذه الطوائف ما شد ركنه ، وقوى أيده ، فنعى لهم الخليفة وعرّفهم مذهب الصقالبة فى نكث بيعة هشام ، وعرض لهم الموقف وقال لهم « إن أبقينا على ابن مولانا وحبسنا عليه الدولة أمنّا على أنفسنا وصارت الدنيا فى أيدينا ، وإن انتقلت إلى المغيرة استبدل بنا وطلب شفاء أحقاده » فأشار عليه أصحابه بقتل المغيرة قبل أن يبلغه موت أخيه فتمكنه الحيلة ، ولكن العزم شىء والتنفيذ شىء آخر ، فقد وافق المصحفى على هذا الرأى ولكن أصحابه تدافعوا فيما بينهم النهوض إلى قتل الأمير المغيرة فكفوا وجبنوا ، وأحجم حتى الرجال الذين خاضوا الحروب ، وألفوا إراقة الدماء عن الاقدام على قتل هذا الأمير الرضى الأخلاق ، وتحرج الموقف ، فبدرهم محمد بن أبى عامر وقال : ياقوم إنى أخاف فساد أمركم ونحن تبع لهذا الرئيس ـ وأشار إلى جعفر المصحفى ـ فينبغى ألا تختلفوا عليه وأنا أتحمّل ذلك عنكم إن أنفذتنى تخفضوا عليكم ، فأعجب جعفرا والجماعة ما كان منه وولّوه شأنه وقالوا « أنت أحق بتولى كبره لخاصتك بالخليفة هشام ومحلك من الدولة » ، وأرسل جعفر مع محمد طائفة من الجند الأحرار وثق بهم لذلك .

وركب محمد إلى المغيرة من ساعته ، وركب معه بدر القائد مولى الناصر

فى مائة غلام من غلمان السلطان ، ووقف بهم خارج باب دار المغيرة ، وأحاط سواه من أصحاب محمد بجهاتها ، واقتحم محمد عليه فوجده مطمئنا على غير استعداد ، فنعى إليه أخاه الحكم ، وعرّفه بجلوس ابنه هشام فى الخلافة ، وأن الوزراء خشوا خلافه فأنفذوه ليعرف رأيه ، فجزع المغيرة واشتد ذعره وأدرك ما ينطوى عليه هذا الكلام من خطر شديد ، ثم استرجع واستبشر بملك ابن أخيه ، وقال بصوت متهدج مرتجف : « إنى سامع مطيع واف ببيعتى ، فتوثقوا منى كيف شئتم » ، وأقبل يستلطف ابن أبى عامر ويناشده الله فى دمه ، ويسأله المراجعة فى أمره حتى رقّ له محمد وكتب إلى جعفر يصدقه عنه ، ويصف له الصورة التى وجده عليها من السلامة والطمأنينة ، ويستأذنه فى شأنه ، فردّ عليه جعفر يلومه فى التأخير ، ويعزم عليه فى التصميم ، ويقول له « غررتنا من نفسك فانفذ لشأنك أو فانصرف نرسل سواك » وكان ابن أبى عامر قد تأثر بصراحة الأمير ، وآمن بصدق كلامه ، وهو لم يحجم فى بادئ الأمر عن الإقدام على قتل الأمير عند ما رأى أن الأمر لازم لمصلحة الدولة ومصلحته الشخصية ، ولكنه أصبح الآن غير راغب فى تلويث يديه بدم رجل برىء لايخشى جانبه، فلما اطلع على كتاب المصحفى اضطغنه فى نفسه ولم ينسه للمصحفى ، ولكنه لم يجد ندحة عن تنفيذ الأمر ، وعرض الرقعة على المغيرة وجعلها بين يديه ، وزال عن وجهه ، وأدخل عليه الجند ، وكانوا يعلمون ما ينتظر منهم فقتلوه خنقاً فى مجلسه ، وعلّقوا جسده فى مخدع يتصل

بمجلسه كهيئة المختنق من تلقاء نفسه ، وذلك كله بمعاينة حرمه ، ثم أشاعوا أنه خنق نفسه لما أكرهوه على الركوب لابن أخيه ، وأمرهم محمد بدفن الجثة فى مجلسه وأن يسدوا الأبواب ليأمنوا على ولده ونعمته ، وعاد ابن أبى عامر إلى جعفر وأخبره بما فعل ، فطابت نفس المصحفى وشكره وأجلسه إلى جانبه لإظهار تقديره له . ووصل ما أصاب المغيرة إلى جؤذر وفائق فدهشا وسقط فى أيديهما، وقال جؤذر لفائق « قد نصحتك فلم تسمع منى » وكان أكمل دهاء من فائق ، واضطرا إلى أن يظهرا بمظهر الراضى عن الحالة ، فذهبا إلى جعفر المصحفى وأظهرا له السلامة والاستبشار بما أتاه والاعتذار عما ارتأياه وقالا له « إن الجزع أذهلنا عما أرشدك الله إليه فجزاك الله عن ابن مولانا خيراً وعن دولتنا وعن المسلمين » وكان المصحفى يكره الخصيين كراهة شديدة ، ولكنه لم ير من أصالة الرأى المبادرة إلى معاقبتهما ، فأظهر لهما بعض القبول وفى نفسه منهما أشياء كثيرة وفى نفسيهما له أبرح لوعة .

وفى صباح اليوم التالى — يوم الاثنين لأربع خلون من صفر — أجلس جعفر هشام بن الحكم للبيعة ، وتولى عقد الشهادة على الناس فى البيعة بين يديه وكيله وصاحب شرطته الوسطى والسكة والمواريث محمد بن أبى عامر ، وكان قاضى الجماعة محمد بن إسحق بن السليم يأخذها على من شهد المجلس من الأعمام وأبنائهم والوزراء وطبقات أهل الخدمة ورجالات قريش

وأعلام أهل الحضرة ، وكان لابن أبى عامر فى أخذ البيعة أثر كبير تذاكره الناس ، وعلا شأنه ، وبعد فى الناس صيته .

وبدا أن الأمور تسير سيراً حسناً ، وأن الجو قد صفا من الغيوم والسحب ، وأن الطريق قد خلا من العقبات والصخور ، والتزم الشعب الهدوء والسكينة حتى تبادر إلى الظن أنه قد استراح إلى فكرة الوصاية ولم يجد بها بأساً ، ولكن المظاهر خدّاعة ، فقد كانت النيران تشتعل تحت القشرة الخفيفة ، وكانت الناس تذم الطامعين الجشعين الذين استغلوا الظروف ، وقتلوا المغيرة ، واستولوا على السلطة ، وعمل الخصيان من ناحيتهم على زيادة التذمر بين الأهالى ومختلف طبقات الشعب ، وبدأت تظهر بوادر تنم على سريان النقمة والتبرم ، وتنذر بقرب هبوب العاصفة ، وانفجار الثورة ، ولم يغب سر هذا الشعور عن ابن أبى عامر الباقعة الذى لا يخفى عليه شىء ، فنصح المصحفى بأن يقوم بعرض الجند و إظهار هيبة الدولة إرهاباً لأهل الخلاف ، وأن يظهر الخليفة هشاماً للشعب ليثير ولاءه العميق ، وعطفه الدفين ، وأن يسقط إحدى الضرائب التى يكرهها الشعب ، ويضيق بها ، فوافق المصحفى على ذلك ، وفى يوم السبت السادس من جلوس هشام وهو العاشر من صفر سنة ٣٦٦ قلّد الخليفة هشام المصحفى حجابته ، وأنهض محمد بن أبى عامر إلى خطة الوزارة وأجراه رسيلا لحاجبه جعفر فى تدبير دولته ، وأخرجت السيدة صبح أم هشام إلى الحاجب جعفر ألا ينفرد عن ابن أبى عامر برأى ، وفى اليوم نفسه ركب

الخليفة هشام ركبته المشهورة تحرسه الجيوش ، ومحمد بن أبى عامر بين يديه بعد أن كساه الخزّ وطافَ بشوارع قرطبة ، وأمر الخليفة بإسقاط ضريبة الزيتون المأخوذة على الزيت فسرّ الناس بذلك أعظم سرور ، وأذاع محمد بين الناس على ألسنة أصدقائه وشيعته أن رفع هـذه الضريبة من إيحائه فنسب إليه شأنها ، وأنه أشار بذلك فأحبه الناس .

وكبرت على الصقالبة هزيمتهم ، وتمـكنت الوحشة بينهم و بين المصحفى ، وانحرفوا عنه وأصحروا بالعداوة ، وكرهوا ولاية هشام ، وأخذ جعفر حذره منهم وأذكى عليهم العيون ، وشدّد الرقابة ، و بلغه أن جؤذراً وفائقاً يدبران على الدولة ، ويدسان فى ذلك إلى بعض من فى قيادتهما من وجوه الغلمان والفحولة ، وكان الدخول والخروج إليهما من باب الحديد فأمر المصحفى بسده بالحجر ، وصيّر دخول الناس من باب السدة ، واستطاع بذلك أن يجعـل الصقالبة تحت الرقابة ، ونظر جعفر فى إزالة الغلمان الفحولة عن رسم هذين الصقلبيين بمواطأة محمد بن أبى عامر ، وأخذ محمـد يغريهم بالوعود الخلاّبة ، و يجتذبهم بالرشى ، ووفّق فى ذلك فانحاز إلى جانبه منهم خمسمائة غلام اشتدّ بهم أزره ، ونجم أمره ، وقدمهم فى الأنْزَال والعطاء ، وانقلب بنو بَرْزَال إلى محمـد بن أبى عامر وصاروا فى قيادته فاعتز بالطائفتين ، وتبعه سائر الجند فهان أمر الصقالبة ، ولم يكن جؤذر غافلاً عن ذلك فحاول أن يرمى بآخر سهم فى جعبته فقدّم استقالته ، واستأذن السلطان فى الخروج إلى داره مستعفياً من الخدمة ،

وكان يظن أنه لا يجاب إلى طلبه لفرط حاجة الخليفة إليه ، ولشد ما تحطمت آماله ، وخابت ظنونه ، عند ما أذن له الخليفة فى الخروج وقبل استقالته ، وكان يأمل أن الخليفة لا يقبل استقالته ، ويستبقيه فيستطيع حينذاك أن يملى شروط العودة إلى وظيفته ، ويفرض إرادته ، وغضب أنصار جؤذر ، واشتد وعيد الصقالبة ، وكان أشدهم فى ذلك درى الفتى أمير بيّاسة ، فقد بسط لسانه فى المصحفى ، وأكثر من التشنيع عليه ، والتنديد بسياسته ، فحرّك جعفر ابن أبى عامر لإزالته والخلاص منه ، فدسّ إلى رعيته وأمرهم بتقديم الشكوى منه ، وكانوا كارهين لحكمه ، ناقمين عليه لجوره وطغيانه ، فسارعوا إلى ذلك ، ورفع الحاجب جعفر شكواهم إلى السلطان ، وأحكم ابن أبى عامر التدبير ، وأعدّ للأمر عدته ، فصدر أمر الخليفة بالجمع بين درى وبين مقدمى الشكوى والنظر فى مصالحهم ، فاستدعى درى إلى بيت الوزارة فلما أشرف على الدار ورأى من أعدّ فيها أحس بالشر وخنس راجعاً ، ولحظ ذلك محمد بن أبى عامر فمنعه من ذلك ، وقبض عليه فتجاذبا فبطش درى بابن أبى عامر ، وقبض على لحيته ، فصاح محمد بمن حضر من الجند فاحتشم الأندلسيون دريًّا وخشوا بأسه وأسرع بنو بَرْزَال إلى إجابته فأوجعوا دريا ضرباً ، ولحقته ضربة بصفح السيف أزالت عقله ، وحمل للوقت إلى داره ، فعوجل من ليلته بالقتل ، وصدر الأمر فى الوقت نفسه إلى فائق وجماعة من كبار الصقالبة بالخروج إلى ديارهم والتزامها ، فخرجوا إليها ، وذهبت شوكتهم ،

وفلّ حدهم ، وتتبعهم ابن أبى عامر فاستصفى أموالهم ، وصادر أملاكهم ، وأصبحوا عاجزين عن مقاومة الوزيرين ، ونفى فائق إلى الجزائر الشرقية (جزائر البليار) حيث مات هناك ، واستبقى المصحفى بعض الصقالبة الذين لم يشتركوا فى هذه الحركة ، وقلّد واحداً منهم – وهو سُكّر – أمر القصر والحرم فسكّن أنفس الصقالبة وجرّأهم على الطاعة فأصغوا إليه ، وقد قضى الوزيران على نفوذ الصقالبة وفصما عروتهم لمصلحتهما الشخصية ، وليخلو لهما الجو ، ولكن هذا الإجراء أرضى أهل قرطبة فقد كانت الصقالبة كابوساً جاثماً على صدورهم ، وبذهاب دولة الصقالبة وضع ابن أبى عامر الحجر الأساسى فى بناء مجده ، وقد عاونه فى هذه المهمة الحاجب المصحفى معاونة قيّمة .

في سبيل المجد

دالت دولة الصقالبة ، وتقاص نفوذهم ، واستقام أمر الدولة ، ولكن لم يلبث القلق أن ساور النفوس وأزعج الخواطر ، فقد بلغت بلاط ناڤار وليون أنباء الاضطراب الذى أعقب موت الحكم ، ورؤى أن الفرصة سانحة لاسترداد المجد الحربى ، واستعادة ما أخذه المسلمون من المدن والحصون ، فجاشت جموع النصارى وخرجوا على أهل الثغور ، وكانوا قد أهملوا التسليح ولم يعدوا العدة لاستتباب الأمن ، واستقرار السلام فى عهد الحكم ، ولم يلق المعتدون مقاومة تذكر ، فدفعوا غاراتهم حتى جبل (١) الشارات وظهرت أعلامهم من حصون قرطبة ، وارتاعت السيدة صبح وخشيت أن يهيج ذلك الفتنة ويحدث أمراً جللاً ، وكان المسيحيون قد بدءوا يظهرون العداء منذ مرض الحكم ولم يكن ينقص المصحفى الرجال ولا المال لتقليم أظفارهم وكبح جماحهم ، ولكنه كان قصير الباع ، ناقص الكفاية ، لا يفهم غير الأوضاع الرتيبة ، والطرق المألوفة وكان جاهلاً الجهل كله بفنون الحرب ، ومما أظهر خطل سياسته ، وفشل

(١) Sierra Morena

تدبيره ، أنه أمر أهل قلعة رَبَاح بقطع سد نهرهم يلتمس بذلك دفاع العدو عن حوزته ، ولم تتسع حيلته لأكثر من ذلك ، وكان ذلك من سقطاته التى أخذت عليه ، واستدعت السيدة صبح ابن أبى عامر وأفضت إليه بمخاوفها ، فقدح فى كفاية المصحفى ، ونعته بالضعف والخور ، واستغل الموقف ليظهر لها فسولة رأيه وفساد تدبيره ، وتكفل لها بعلاج الموقف ، والقيام بالتبعة ، إذا منح حرية الاختيار ، والعمل على إعداد حملة ليسد الخلل ، ويقتص من المسيحيين ، ويصون هيبة الدولة ، فوعدته بالتأييد وتلبية مطالبه .

وكان ابن أبى عامر لا ينازل عدوين فى وقت واحد ، ويتحاشى على الدوام أن يحارب فى جبهتين ، وكانت طريقته أن يستدرج أعداءه واحداً بعد الآخر ، وكان إذا كاشف أحدهم بعداوته وعالنه بالحرب بالغ فى التقرب من العدو الذى فى نيته أن ينازله بعد ذلك ، وقد استعان بالمصحفى على الصقالبة حتى بدد جمعهم وحطم قوتهم ، وكان الذى يعترض طريقه بعد ذلك هو المصحفى ؛ ففى أثناء فراغه لمجاهدة الصقالبة كان يبالغ فى التقرب من المصحفى ، ويتصنع الإخلاص له ، وأتقن تمثيل دوره حتى أوفى على الغاية ووثق به المصحفى ، ووصل يده بيده ، وأطلعه على سره ، واستراح إلى كفايته وهو يمكر به ، وأشار عليه فى هذا الموقف بضرورة الجهاد ، وخوفه سوء العاقبة فى تركه ، وأجمع الوزراء على ذلك إلا جماعة منهم استطابوا الدعة ، وألفوا الخفض ، فلم يأنفوا من هذه السياسة الموسومة بسمة الضعف والتخاذل ، وكان

ابن أبى عامر يريد أن يتوصل إلى تقلد جيش المملكة ، والقيام بجهاد العدو تنفيذاً لخطته ، وتحقيقاً لطموحه ، وأراد أن يحتفظ لنفسه بحق اختيار القوّاد والجند اتقاء للفشل والهزيمة ، فلما اجتمع مجلس الوزراء ، ونظر فى الموقف ، وعرض الحالة ، وافق على فكرة الجهاد ، وعرض القيام به على جميع الأكابر فأحجموا إلا ابن أبى عامر فقد بادر إليه على أن يختار من يخرج معه من الرجال ، ويتجهز لغزوه بمائة ألف دينار ، فاستكثر ذلك بعض من حضر من الوزراء ، فانبرى له محمد بن أبى عامر قائلاً « خذ ضعفها وامض وليحسن غناؤك » فسكت المعترض عن ذلك ، وأقر المجلس اختيار ابن أبى عامر وتسليمه الجيش والمال .

وخرج ابن أبى عامر لثلاث خلون من رجب سنة ٣٦٦ على رأس قوة من الجيوش المختارة من نواحى المملكة ، وكان قد بلغ فى ذلك الوقت التاسعة والثلاثين ، وكان لا يعرف عن فن الحرب إلا القليل الذى أفاده من مخالطته للقواد فى حرب المغرب الأقصى ، فقد أمضى حياته فى الوظائف الإدارية التى لا تعين على الإلمام بالشؤون الحربية ، ولكن عقله القوى المتفتح الخصب مكّنه من التغلب على هذه الصعوبة وقد استعاض عن نقص معلوماته العسكرية وخبرته الحربية بما فيه من الحزم ، وصدق الحكم على الأشياء ، مع الإقدام المقترن بالروية واستيفاء الأهبة ، وبما عنده من قدرة فائقة على استنهاض همة الرجال ، واكتساب ثقتهم وولائهم ، وطالما نفعته هذه الموهبة فى

المواقف الحرجة والأزمات الشديدة ، وقد أعانه على ذلك كرمه الشامل و إثابته الشجاع لتزداد شجاعته ومسارعته إلى عقاب المسىء حتى يقلع عن إساءته و يكون عبرة لغيره ، وقد ظلّت هذه سياسته المتبعة فى الشؤون الحربية .

ودخل بجيشه على الثغر الجوفى فنازل حصن الحامّة ، ودخل ربضه وأفشى النكاية فيه وغنم وقفل وعاد إلى قرطبة بالسبى إلى اثنين وخمسين يوماً من خروجه ، ولم يكن هذا الانتصار من الانتصارات العظيمة ، ولكنه أعاد للخلافة هيبتها ، وأثار حماسة الجند بعد أن استطابوا الراحة فى ظلال الأمن والسلام ، وابتعث الأمل فى العودة إلى الأمجاد الحربية ، والانتصارات الباهرة ، وأقنع هذا القائد الجديد البازغ نجمه الصاعد جده أعداء الإسلام أن سيف الخلافة لم يعله الصدأ ، وأن روح الجهاد فى الدولة الإسلامية لم تخمد ، وأمن المسلمون إلى حد مّا شرّ أعدائهم ، وعظم السرور فى قرطبة بهذا الانتصار وأخلص الجند لابن أبى عامر ، واستهلكوا فى طاعته لما رأوه من كرمه وحسن تعهده لهم ، واستقرت مكانته على أسس متينه ، وازداد نفوذه وعظم جاهه ، وأخذ يعمل على توسيع سلطته والبسط من نفوذه ، وكان ذلك يقتضى هدم المصحفى و إسقاطه والتخلص من سائر الموظفين الكبار الذين يعترضون طريقه و إحلال غيرهم من رجاله محلهم ، فبدأ يعمل الحيلة فى القضاء على نفوذ المصحفى وكان المصحفى من أصل بربرى — كما سبق أن أوضحت — وقرّبه الحكم وفاء لوالده الذى كان معلمه و إعجاباً بأدبه — فقد كان المصحفى فى عصره يعد فى

طليعة كتاب الأندلس وشعرائها ـ ولكن المصحفى كان فيه غرور محدثى النعمة وتأبهم ، وكان أشراف العرب وأبناء البيوت القديمة والأسر المعروفة يلمزونه بالضعة ، ويسوءهم تقلبه فى المناصب العالية حتى أصبح فى طليعة وزراء الأندلس ، ولم ينجح فى عقد الصداقات واكتساب المودات ، وكان خصومه وحساده يتربصون به الدوائر وينتظرون به المكروه ، ولم يظهر المصحفى كفاية ممتازة ، ولا قدرة خارقة ، ولذا كان معاصروه يستكثرون عليه تنقله فى مطالع الدولة ، والتياحه فى أفقها ، وقد حاول المصحفى فى بدء عهد هشام أن يصلح ذلك ، فلما قلّده هشام حجابته ، ورفع فراشه فوق فراش الوزراء أصحابه ، وأبدل بالكتان الديباج على سالف العادة قال « إنى أستحى من أصحابى أن أتمهد أفضل من فرشهم مع عجزى عن إدراك شأوهم ، غير أنا نسلم لأمير المؤمنين اختياره فإما أن يساوى بيننا فى فرش كرامته وإما أقرنا على الأمر الأول ولا كفران لنعمته » فأفرش للجميع مذ زال فرش الديباج فرش الكتان ، وجرى الرسم على ذلك ، واستحسن فعل المصحفى يومئذ، والتزم هذه السياسة فلزم التواضع للناس، وألان كنفه، وأطلق لهم البشر، ورأى بذلك أنهم يصلحون دون البذل لذات اليد والمواساة فى النعمة ، واستأثر بالأعمال ، واحتجن الأموال وشح بالنشب ، وكان ابن أبى عامر يعارضه فى ذلك ويأخذ معه بطرفى نقيض بالبخل جوداً وباقتناء الضياع اصطناع الرجال ، وكان المصحفى متعصباً لأقاربه فقد ملأ وظائف الدولة الكبيرة بأولاده وأولاد أخيه ، ولم يكن له

مواهب السياسى البارع فلم يكن يستطيع البت فى الأحوال المتغيرة والمواقف المتجددة ، وصار لزاماً عليه أن يعتمد على غيره فى تدبير الأعمال السياسية ورسم الخطط ، ولما استوثق من ابن أبى عامر جعله ناصحه الأمين ومستشاره المخلص ، وظلّ ابن أبى عامر يظهر له الود المصفّق والإخلاص المحض . وكان أكبر همّ المصحفى أن ينمو ماله وتمتلئ خزائنه وتكثر ضياعه ، وفى الوقت الذى كان ابن أبى عامر يظهر فيه آيات الإكبار وخالص النصائح للمصحفى أخذ يتصيد له العيوب ويحصى عليه السقطات ، وينصب له الفخاخ ، ويضع الألغام ، ويعمل من وراء ستار وفى تكتم شديد وتحفظ بالغ لهدمه ، ولا يترك فرصة تفلت دون أن يسترعى نظر السيدة صبح إلى أخطائه المتوالية ، وعجزه البين ، وقلة غنائه ونقص كفايته . وكانت السيدة صبح بعد وفاة زوجها الحكم لا تزال امرأة صبيحة الوجه ، ميّادة القد ، ترف عليها نضرة النعيم ، وكانت منهومة بالمتعة واستمراءِ ما فى الوجود من مسرات ، وتود أن تعيش ملء كيانها وحفل حياتها ، وقد عرف ابن أبى عامر الطريق إلى قلبها ، وكيف يستولى على عواطفها ، وتأكدت بينهما المودة أو المحبة أو الولَه ورفعت الكلفة وأصبح موقفها منه مثل موقف شجرة الدر من عز الدين أيبك ، وموقف الملكة مارى ستيوارت من اللورد بوزويل ، فهى تأتمر بأمره ، وتطيع نصيحته ، وتأخذ بأحكامه ، وتتلقى وحيه ولا تضن عليه بتضحية ، وهكذا شأن المرأة القوية العواطف ، العارمة الميول ، إذا استولى عليها أخبث الشياطين

وهو شيطان المتعة ، واستذلّ كبرياءها وألهاها عن واجبها ، والسيدة صبح بشكنسية فهى من قوم فيهم عرامة أهل الفطرة ، وعنف ميول سكان الجبال والأماكن المنيعة ، وقد أخلصت لابن أبى عامر وشدّت أزره ، وناصرته فى نضاله ، وعبدّت له الطريق وأزالت منه الكثير من العقبات المعترضة .

وكان بين المصحفى وغالب صاحب مدينة سالم وشيخ الموالى وفارس الأندلس غير مدافع أشد ما كان بين اثنين من العداوة و التقاطع ، وكان المصحفى يخشى غالباً ، وكان غالب يزدريه و يمقته ولا يراه أهلاً للمنصب الرفيع الذى يشغله ، وكان يرى نفسه ـ وهو الذى حاز النصر فى مختلف الميادين ـ أولى بمنصب الحجابة من الرجل الذى لم يجرد حساماً ولم يقد جيشاً ، وكان يضمر له العداوة ولا يتكلف مجاملته ومداراته ، وكان غالب يعتبر من الوجهة الحكومية مرءوساً للمصحفى ، ولكنه كان يستهين بأوامر الحكومة ، ولا يعبأ برجالها ، وأظهر بسلوكه أن الحكومة لا تستطيع الاعتماد عليه ولا الثقة به ، وقد تباطأ منذ موت الحكم فى مدافعة المسيحيين ، وقعد عن ردهم لما هاجموا الثغور ، وهو لم يكن قد ارتكب بعد عملاً من أعمال الخيانة ، ولم يقم بثورة ، ولم يلتمس مساعدة النصارى ، ولكن تصرفه كان يشعر بأنه سائر فى هذا الطريق ومندفع إليه ، وكان من الصعب على المصحفى فى هذه الحالة أن يثبت له ، و يرد عاديته ، فقد كان جيش غالب أحسن الجيوش دربة وأتمها تأهباً ، وإذا عضده أهل قشتالة وأهل ليون اكتسح كل شىء وفرض إرادته ونال

بغيته ، وكان المصحفى يعلم من ناحية أخرى أن أعداءه كثيرون وأنهم يتحينون الفرصة ليسلبوه منصبه وجاهه وماله وحياته إذا استطاعوا إليها سبيلاً ، فأهمّ المصحفى شأن غالب وناظر الوزراء فيما بدا من تثاقله فى الذب عن الثغور فأشاروا عليه باستصلاحه وشراء صداقته بأى ثمن ، وكان فى طليعة هؤلاء المشيرين بذلك ابن أبى عامر لما أراده من مظاهرة غالب ، والاستعانة به على إسقاط المصحفى ، وأخذ ابن أبى عامر يلعب دوراً من أدواره التى تدل على الحذق والبراعة والدهاء وسعة الحيلة ، فهو كان يريد هدم المصحفى وغالب معاً ، ولكنه جرياً على أسلوبه رأى أن يستعين بغالب فى إسقاط المصحفى ، واتباعاً للقواعد التى سنّها لنفسه أخذ يتظاهر بالإخلاص لغالب ، ويبالغ فى التقرب منه ، ومجاملته واكتساب ثقته ، وتحرى ألا يثير أى شبهة أو شكاً فى نفس المصحفى ، وكان سبيل ذلك اقناع المصحفى بأن مصلحته تقتضى تقريب غالب وأخذ يعلى من مكانة غالب عند السيدة صبح وابنها الخليفة هشام ، وأقنع القصر بضروره تقريب غالب واسترضائه ورعى ذمامه ، حتى خرج الإذن بترقية غالب إلى منصب ذى الوزارتين وعهد إليه فى تدبير جيش الثغر وإلى ابن أبى عامر فى الإشراف على جيش الحضرة ، ولم يعارض فى ذلك المصحفى لأن ابن أبى عامر أقنعه بأن هذا هو السبيل لعقد الصلح بينه وبين غالب .

وفى يوم عيد الفطر من سنة ٣٦٦ ـ أى بعد شهر واحد من عودته إلى قرطبة من غزوته الأولى ـ خرج فى غزوته الثانيـة ، وفى مجريط اجتمع مع

غالب وتعاقدا على الايقاع بجعفر المصحفى ، وخدم ابن أبى عامر فى سفره هـذا غالبا خدمة ملك بها نفسه فمـال إليه غالب بكليته واستمرا فى غزوهما وافتتحا حصن موله ، واستوليا على غنائم كثيرة ، وأسرا عددا عديدا من النصارى ، وكان أكثر الأثر فى هذه الغزوة لغالب فتجافى عنه لابن أبى عامر ، ولما انتهت الغزوة الظافرة افترق القائدان وعاد غالب إلى ثغره بعد أن أبلغ فى مواطأة ابن أبى عامر على عدوه جعفر وقال لابن أبى عامر عند وداعه « سيظهر لك بهذا الفتح اسم عظيم وذكر جليل وسيشغلهم السرور به عن الخوض فيما تحدثه من قصة ، فاياك أن تخرج عن الدار (قصر الخلافة) حتى تعزل ابن جعفر عن المدينة وتتقلدها دونه » ، ووعده ابن أبى عامر بأنه سيعمل بنصيحته ، وسار ابن أبى عامر إلى قرطبة ، وكان فخر هـذه الغزوة لغالب واضع خططها والقائم بتنفيذ تفصيلاتها ، وابن أبى عامر كان يتابعه ولا يعارض خططه لأن غالبا كان قائدا قديماً محنكاً ، ولكن غالباً كان يريد إعلاء شأن ابن أبى عامر ، فأظهر المسألة فى ضوء آخر وخاطب الخليفة بحسن مناب ابن أبى عامر فى هذه الغزوة ، ونسب السعى والاجتهاد إليه ، وشكره وشد عضده عند الخليفة ، ووصلت هذه الرسالة قرطبة قبل عودة ابن أبى عامر ، ودخل محمد قرطبة منصرفا بالسبى والغنائم فاستمال بهذا الفتح قلوب العامة والخاصة ، وتعرفوا فيه يمن النقيبة ، فبعد صيته ، وهان عليه أمر جعفر المصحفى وغيره ، وشرع فى هدمه ، ولم يجد صعوبة فى أن يخلف ابن المصحفى ، وماذا يضن به على قائد يعود مرتين

منتصرا ويشهد له أعظم قواد عصره ويزكيه ويطرى شجاعته ويعلى قدرته ؟
فخرج أمر الخليفة يوم وروده بصرف محمد بن جعفر عن المدينة وتقليدها ابن أبى عامر ، وخرج محمد فى هذا اليوم نحو كرسيها والخلع عليه ومحمد بن جعفر لا يعلم ذلك وكان جالسا فى مجلسه تحفه الأبهة فاذا بابن أبى عامر يتقدم منه ومعه الإذن بتقلده المنصب فولّى محمد بن جعفر ناكصا على عقبه ، وملك ابن أبى عامر باب القصر بولايته الشرطة والجيش ، وأصبحت المدينة والقصر والجيش فى يده فملك بذلك على جعفر وجوه الحيلة وخلّاه وليس فى يده من الأمر إلا أقلّه ، وضبط محمد المدينة ضبطا أنسى أهل الحضرة من سلف من أفراد الكفاة وأولى السياسة ، وكان أهلها قبله فى بلاء عظيم يتحارسون الليل كله ، ويكابدون من روعات طراقه ما يكابد أهل الثغور من العدو ، وأصدر ابن أبى عامر إلى رجاله أوامر مشددة بمقاومة الأشرار ، والضرب على أيديهم بغض النظر عن أشخاصهم ومكانة قومهم ، وهددهم بالعقوبة الشديدة إذا قبلوا الرشوة أو تهاونوا فى واجبهم ، فعاد الأمن إلى نصابه ، وضرب لهم الحاكم الجديد مثلا لا ينسى ، فقد خالف ابنه الأمر ووقع فى يد الشرطة فأمر بجلده ولم يقصر فى عقابه ومات ابنه بعد أيام فخافت الناس صولة هذا الحاكم الذى لا يعفى من حكم القانون حتى ابنه وأقرب الناس إليه ، وتنزهت أعمال ابن أبى عامر عما كان ينسب إلى محمد ابن المصحفى من التقصير فى قمع أهل الفسق والدعارات

والإجرام لما كانوا يقدمونه إليه من رشى وشفاعات ، وانقمع الشر فى أيامه جملة .
واستيقظ المصحفى أخيرا من غفوته وانحسرت الغشاوة عن بصره ، فإن عزل ابنه من منصبه بغير علمه ، وبدون مشورته ، لم يترك له مجالا للشك فى نيات ابن أبى عامر ، ولكن ماذا يصنع فى هذا الموقف ؟. كان ابن أبى عامر يستطيع أن يعتمد على مساعدة القصر وتأييده فقد أصبحت السيدة صبح أطوع له من بنانه ، وعلى أعيان الدولة الذين كانوا يؤثرون أن يروا فى مكان المصحفى رجلا من أسرة قديمة و بيت معروف لا رجلا حديث النعمة طريف المجد يسىء إليهم بادعاء الكبرياء والتنبل أو بالتواضع المصطنع واللين الزائف ، وكان الحاكم الجديد يستطيع الاعتماد على ولاء الجيش الذى أصبح يميل إليه و يعجب به ، وعلى سكان قرطبة الذين أعجبهم ضبطه للمدينة وقطعه دابر الأشقياء والمفسدين ، ولم يكن المصحفى يستطيع أن يثق الأبولاء أفراد قلائل يعزون رخاءهم ومكانتهم إلى علاقتهم به و يرتبط مصيرهم بمصيره .

ولم تكن القوى متعادلة فى هذا الصراع بين الرجل العبقرى والرجل العادى ، ولذا لم يكن صراعا شائقا له ناحيته الفنية الطريفة التى تهون مرارته ، وتسبغ عليه الروعة والجلال ، وتكشف عن الأفانين من مبتكر الحيل ، وغريب المفاجآت ، وكيف تقابل الصدمة بالصدمة ، و يرد الكيد بمثله ، وكان المصحفى وابن أبى عامر رجلين من عالمين مختلفين ، وقد استطاع ابن أبى عامر بدهائه وحيلته أن يقيم جسرا مؤقتا للتعارف والتفاهم مع المصحفى ، وقد حطم

هذا الجسر لما أصبح فى غير حاجة إليه ، وأدرك المصحفى حرج موقفه ، واقتدح زند قريحته ، فلم يجد سوى حيلة واحدة لإنقاذ الموقف وهى المبادرة إلى التقرب من غالب ، فكاتبه يستصلحه ، وخطب ابنته أسماء لابنه عثمان ، وكان هذا آخر سهم فى كنانته ، وتأثر غالب بطلبه ، ووافق على ذلك رغم ما كان بينهما من خلاف وعداء ، وكانت أسرة المصحفى معروفة فى الأندلس بضخامة الثروة وكانت سلطة المصحفى الاسمية لا تزال عظيمة ، وتمت كتابة العقد ، وحدد يوم الزفاف دون أن يعلم ابن أبى عامر بهذه التدبيرات القاضية عليه والهادمة لآماله ، ولكن مثل هذا الأمر لا يطول خفاؤه ، ولا يتيسر كتمانه ، ولابن أبى عامر عيونه الذين يوافونه بما دقّ وجلّ من الأنباء ، فلما انكشف الأمر لابن أبى عامر قامت قيامته ، وثار ثائره ، وكاتب غالباً ينشده العهد ، ويخوفه الحيلة ، ويهيج منه الحقد ، وأغرى رجال القصر فكاتبوه وصرفوه عن نيته ، ففسخ عقد الزواج ، وانحرف عن المصحفى ، وعرف غالب أنه قد أخطأ ، وتقدم ابن أبى عامر إلى خطوبة ابنته فوافق على ذلك وزوّجه منها وتمت كتابة العقد فى أوائل المحرم سنة ٣٦٧ وفى أواخر شهر المحرم خرج ابن أبى عامر إلى الغزو — وهى غزوته الثالثة — ودخل طليطلة فى غرة صفر واجتمع مع صهره غالب فعظّمه وجرى إلى موافقته ، وافتتحا حصنين من حصون المسيحيين ، ودوخا مدينة سلمنقة ، وأخذا أرباضها ، وقفل ابن أبى عامر إلى قرطبة بالسبى والغنائم و بعدد عظيم من رؤوس المشركين إلى أربعة وثلاثين

يوما من خروجه ، ورقى إلى منصب ذى الوزارتين ورفع راتبه إلى الثمانين دينارا فى الشهر وهو راتب الحجابة ، وبالغ الخليفة فى إكرامه والتنويه به واستقدم الخليفة غالباً لاستهداء أسماء إلى زوجها محمد ، وأدخلت أسماء إلى القصر وجهزت به ، وعند قدوم غالب أكرمه الخليفة وقلّده الحجابة مشتركا مع جعفر ، وزفّت أسماء إلى ابن أبى عامر من قصر الخلافة وكانت أعظم ليلة عرس بالأندلس ، ووافق الزفاف ليلة النيروز وتكفل الخليفة بجميع النفقات وكانت أسماء توصف بالجمال البارع والأدب الصالح والثقافة الممتازة ، وحظيت عند ابن أبى عامر فلم يفارقها طوال حياته .

وعرف المصحفى منذ الساعة التى رفض فيها غالب طلبه وألغى عقد الزواج أنه أصبح على شفا الهوة ، والتوى عليه أمره ، وقلت حيلته ، ووهن كيده ، وسدت عليه مطالعه ، وضاق به رحب الفضاء ، وهجره أصحابه، وانفضوا من حوله ، وشرعوا يحرقون البخور لخصمه ، وكان غالب يجلس فى مكان الشرف فى الحفلات لأنه يحمل لقب ذى الوزارتين مع لقب الحاجب وعلى يمينه المصحفى وإلى يساره ابن أبى عامر .

وتدرع المصحفى بالصبر ، ووطن نفسه على احتمال المكروه ، وأصبح فى يد ابن أبى عامر كالحجل فى يد البازى ، وكف عن اعتراض ابن أبى عامر فى شىء من التدبير ، وابن أبى عامر يداهنه ولا يكاشفه ، وجعفر يعجب من أمره وقد استولى عليه الإدبار والحيرة ، وأصبح يطأ الشوك ، ويخبط فى الظلام .

وصار يغدو إلى قصر قرطبة و يروح وحده وليس فى يده من الحجابة سوى اسمها ، وابن أبى عامر قائم بشروطها ينصب الحبائل لسقوط جعفر والأقدار تساعده ، وعرف هذا الشيخ الذى كان يجر وراءه السنين أن العاصفة قريبة الهبوب ، فانتظرها ضارعاً مستسلماً وكانت أسرع مما قدر ، ففى يوم الإثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ٣٦٧ سخط الخليفة على جعفر وصرفه عن الحجابة ، وأمر بالقبض عليه وعلى ولده وأسبابه وعلى ابن أخيه هشام ، وصرفوا عما كان بأيديهم من الأعمال وطولبوا بالأموال ، وتوصل ابن أبى عامر بمحاسبتهم إلى استصفاء أموالهم ، وانتهاك حرمتهم ، وترديد النكبات عليهم ، حتى مزقهم كل ممزق،وسارع إلى قتل هشام ابن أخى جعفر فى المطبق إذ كان أشد آل عثمان عداوة له ، و بلغ من حسادته لابن أبى عامر أن سرق بعض رؤوس النصارى التى أرسلها ابن أبى عامر إلى الحضرة فى غزاته الثالثة وأمر غلمانه فصبوها فى النهر ، وغاظ ذلك محمد بن أبى عامر فكاشف المصحفى وأقار به من ذلك اليوم وتجرد لإبادتهم ، واستقصى ابن أبى عامر مال جعفر حتى باع داره بالرصافة وكانت من أعظم قصور قرطبة .

وكان ضمير المصحفى مثقلاً لأنه كان شاعراً بجرائر أخطائه وعواقب أفعاله ، فقد ظلم كثيرا واستغل منصبه لجمع المال طويلا ، فلما أمر به إلى المطبق ودع أهله وولده وداع الفرقة وقال « هذا وقت إجابة الدعوة ، وأنا أرتقبه منذ أربعين سنة » فسئل عما ذكره فقال : « رفع على فلان أيام الناصر وسعى به

إليه فأشرفت على أعماله فآل أمره إلى ضربه وتغير نعمته و إطالة حبسه ، فبينا أنا نائم ذات ليلة إذ أتانى آت فقال لى: أطلق فلاناً فقد أُجيبت دعوته فيك ، ولهـذا أمر أنت لا بدّ لاقيه ، فانتبهت مذعوراً ، وأحضرت الرجل وسألته إحلالى فامتنع علىّ فاستحلفته على إعلامى بمـا خصنى به من الدعاء فقال نعم دعوت الله أن يميتك فى أضيق السجون كما أعمرتنيه حقبـة ، فعلمت أنه قد وجبت دعوته وندمت حيث لا ينفع النـدم ، وأطلقت الرجل ، ولم أزل أرتقب ذلك »

وسجنوا فى سجن الحكومة بالزهراء ، وحوكم المصحفى أمام مجلس الوزراء ، وطالت محاكمته وكانت البراهين كثيرة على ارتشائه وانتهابه الأموال، وتوالت عليـه الاتهامات ونزعت أملاكه جميعها ، وكان الوزراء يشتدون فى محاسبته إرضاءً لابن أبى عامر ، ففى آخر مرة سيق فيها إلى مجلس الوزراء كان واثق الضاغط ينهره و يزعجه و يستحثه ، فقال له المصحفى : « رفقاً بى فستدرك ما تحبه وتشتهيه و ياليت أن الموت يُبَاع فَأُغلِى سَوْمَه حتى يرده من قد أطال عليه حومَهُ ، ثم قال :

لا تأمننّ من الزمان تقلباً — إن الزمان بأهله يتقلّب
ولقد أرانى والليوث تخافنى — وأخافَنى من بعد ذاك الثعلب
حسب الكريم مذلةً ومهانةً — ألا يزالُ إلى لئيم يطلب
و إذا أتت أُعجوبة فاصبر لها — فالدهر يأتى بالذى هو أعجب

فلما بلغ المجلس جلس فى آخره دون أن يسلم على أحد أو يومىء إليه بعين أو يد ، فلما أخذ مجلسه تسرع إليه الوزير محمد بن حفص بن جابر فعنّفه وأنكر عليه ترك السلام وجعفر معرض عنه ، إلى أن كثر القول منه فالتفت إليه المصحفى وقال : « ياهذا جهلت المبرة فاستجهلت صانعها ، وكفرت اليد فقصدت الأذى ولم ترهب مقدمها ، ولو أتيت نكراً لكان غيرك أدرى ، وقد وقعت فى أمر ما أظنك تخلص منه ، ولا يسعك السكوت عنه ونسيت الأيادى الجميلة والمبرات الجليلة » فلما سمع محمد بن حفص ذلك قال : « هذا البَهْتُ بعينه ، وأىُّ أياديك الغر التى مننت بها ، وعنيت أداء واجبها ، أيدّ كذا أم يدّ كذا وعدّد أشياء أنكرها منه أيام إمارته وتصرف الدهر طوع إشارته »

فقال جعفر : « هذا ما لا يعرف ، والحق الذى لا يرد ولا يصرف رفعى القطع عن يمناك »

فأصرّ محمد بن حفص على الجَحْد ، فقال جعفر « أَنْشُد الله من له علم بما أذكره إلا اعترف به فلا ينكره »

فقال الوزير أحمد بن عباس « قد كان بعض ما ذكرته يا أبا الحسن وغيره أولى بك وأنت فيما أنت فيه من محنتك وطلبك »

فقال المصحفى « أحرجنى الرجل فتكلمت »

فأقبل الوزير محمد بن جهور على محمد بن حفص وقال « لقد أسأت إلى الحاجب ، وأوجبت عليه غير الواجب ، أو ما علمت أن منكوب السلطان

لا يسلم على أوليائه لأنه إن فعل ألزمهم الرد لقوله تعالى : « وإذا حيّيتم بتحية فحيُّوا بأحسن منها أو ردوها » فإن فعلوا أطاف بهم من إنكار السلطان ما يخشى ويخاف ، لأنه تأنيس لمن أوحش وتأمين لمن أخاف ، وإن تركوا الرد أسخطوا الله ، فصار الإمساك أحسن ، ومثل هذا لا يخفى على أبى الحسن »

فانكسر محمد بن حفص ، وخجل مما أتى به وأسفر وجه المصحفى وتهلل ، ثم أخذ القوم فى مناظرته على المال فقال « والله قد استنفدت ما عندى من الطارف والتالد ولا مطمع فىّ فى درهم ولو قطعت إرباً إرباً » فصرف إلى محبسه فى مطبق الزهراء .

وكان ابن أبى عامر يحمله معه فى الغزوات تعنيتاً له وانتقاماً منه ، واستمرت النكبة عليه سنين مرةً يحبس ومرةً يخلى ويقر بالحضرة وتارةً يسير عنها ولا يراح فى الحالتين من المطالبة والأذى ، وإذا سئم ابن أبى عامر إعناته وكله إلى غالب صهره فيتولى كيده ويضاعف عذابه .

وقد كتب إلى المنصور من سجنه يستعطفه بهذه الأبيات :

هبنى أسأت فأين العفو والكرم ... إذ قادنى نحوك الإذعان والنّدم

ياخير مَن مُدّت الأيدى إليه أما ... ترثى لشيخ نعاه عندك القلم

بالغت فى السخط فاصفح صفح مقتدر ... إن الملوك إذا ما استرحموا رحموا

فراجعه ابن أبى عامر بهذه الأبيات – ويقال إنه أمر عبد الملك الجزيرى بنظمها :

الآن ياجاهلاً زلّت به القدم تبغى التكرّم لما فاتك الكرم
أغريت بى ملكاً لولا تثبّته ما جاز لى عنده نطق ولا كلم
فايأس من العيش إذ قد صرت فى طَبَق إن الملوك إذا ما استنقموا نقموا
نفسى إذا سخطت ليست براضية ولو تشفّع فيك العرب والعجم

ولما بلغ المصحفى هذا الجواب قال :

لى مدة لا بدّ أبلغها فإذا انقضت أيامها مت
لو قابلتنى الأسد ضارية والموت لم يدن لما خفت
فانظر إلىّ وكن على حذر فبمثل حالك أمس قد كنت

ومما يروى له عند ظهور ابن أبى عامر عليه ، وانتزاعه ما كان له من الحجابة وإقصائه إلى هذه الحالة من الهضم والاعتقال قوله :

تندمت والمغرور من قد تندّما وهل ينفع الإنسان أن يتندّما
غرست قضيباً خلته عود كرمة وكنت عليه فى الحوادث قيّما
أكرمه دهرى فيزداد خسّةً ولو كان من عود كريم تكرّما

ولم يصبر المصحفى لنكبته صبر الكرام ، ولم يتجلد تجلد الأقوياء الذين لا يستكينون للأحداث ، ولا تستذلهم نوازل الخطوب ، وأبدى من الهلع والجزع ما لم يظن أنه يصدر من مثله حتى أنه كتب إلى ابن أبى عامر يطلب

منه أن يقعد فى دهليزه معلما لأولاده ، فقال ابن أبى عامر وقد أدرك بدهائه وحذقه ما يرمى إليه المصحفى « إن هذا الرجل يريد أن يحط من قدرى عند الناس لأنهم طالما رأونى بدهليزه خادماً ومسلماً ، فكيف يرونه الآن فى دهليزى معلماً ؟ » وكما كانت تنقصه فى حكمه أصالة الرأى وبعد النظر والهمة العالية فكذلك فى محنته كان ينقصه الإباء والكرامة ، وقد كان الألم يفطر قلبه ، ويعتصر نفسه ، فيرسل أشجانه فى أبيات سائرة يضمّنها لوعته ، وينفث فيها زفرته ، من ذلك هذه الأبيات الباكية المؤثرة

صبرت على الأيام لما تولت	وألزمت نفسى صبرها فاستمرت
فواعجبا للقلب كيف اعترافه	وللنفس بعد العز كيف استذلّت
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى	فان طمعت تاقت وإلا تسلت
وكانت على الأيام نفسى عزيزة	فلما رأت صبرى على الذل ذلّت
فقلت لها يا نفس موتى كريمة	فقد كانت الدنيا لنا ثم ولّت

وكان ابن أبى عامر على ما يظهر يستعذب إيلام هذا الرجل العاجز الواهن الذى جرّد من سلاحه وفقد كل شىء ، وربما كان من الصعب أن نعرف سبب هذه الكراهة الشديدة ، وربما كان من الممكن أن نعزوها إلى ما كان يتنزّى فى نفس ابن أبى عامر من الحقد عليه لإرغامه اياه على قتل المغيرة بدون مسوغ ولإهماله شأنه فى أوائل أيامه ، ولا يبعد أنه كان له أثر فى توجيه تهمة التلاعب بأموال السكة إلى ابن أبى عامر عند الخليفة الحكم ،

ومهما كان من أمره فقد ظل خمس سنوات يلقى الغصص ، ويتجرع الألم ، وهو مع ذلك متشبث بالحياة طامع فيها .

ولما بان عجزه وضعفه أقر فى المطبق إلى أن وافاه هناك حمامه ، وأسلم ميتا إلى أهله ، وما ترك الناس أن عدّوه فى قتلى ابن أبى عامر وزعموا أنه دس له شربة سم قضت عليه ، وقد شاءت الأقدار القاسية أن تكون خاتمة هذا الرجل العاثر الجد هكذا بلا مجد ولا فخار ، وكان لتقلبات الأيام بهذا الرجل وتبدل صورها على عينه أثر بالغ فى نفوس معاصريه ، وقد حفظ لنا أحدهم ـ وهو محمد بن اسماعيل كاتب المنصور ـ وقع هذا الحادث فى نفسه ، وتأثيره فى تفكيره ، فقال فى وصفه « سرت مع محمد بن مسلمة إلى الزهراء لتسليم جسد جعفر إلى أهله وولده والحضور على إنزاله فى ملحده فنظرت إليه ولا أثر فيه ، وليس عليه شيء يواريه غير كساء خلق لبعض البوابين ستره به ، فدعا له محمد بن مسلمة بغاسل فغسله والله على فرد باب اقتلع من ناحية الدار وأنا أعتبر من تصرف الأقدار ، وخرجنا بنعشه إلى قبره وما معنا إلا إمام المسجد المستدعى للصلاة وما تجاسر أحد على النظر إليه ، وإن لى فى خبره لشأنا ما سمع بمثله طالب وعظ ولا وقع فى مسمع ولا تصور للحظ ، وقفت له فى طريقه أيام نهيه وأمره أروم أن أناوله قصة كانت به مختصة فوالله ما تمكنت من الدنو منه بحيلة لكثافة موكبه ، وكثرة من حف به ، وأخذ الناس السكك عليه وأفواه الطرق ينظرون إليه ، ويسلمون عليه ، حتى ناولت قصتى بعض كتابه الذين

نصبهم جناحي موكبه لأخذ القصص ، فانصرفت وفى نفسى ما فيها من الشرق بحاله والغصص ، فلم تطل المدة حتى غضب عليه المنصور واعتقله ونقله معه فى الغزوات ذليلا وحمله واتفق أن نزلت بجليقية فى بعض المنازل إلى جانب خبائه فى ليلة نهى فيها المنصور عن وقد النيران ليخفى على العدو أثره ، ولا ينكشف له خبره ، فرأيت والله ابن عثمان يسقيه دقيقاً قد خلطه بما يقيم به أوده ، و يمسك به رمقه بضعف حال وعدم زاد ومال ، وسمعته يقول :

تأملت صرف الحادثات فلم أزل — أراها توفّى عند مقصدها الحرا
فلله أيام مضت بسبيلها — فانى لا أنسى لها أبدا ذكرا
ليالى لم يدر الزمان مكانها — ولا نظرت منها حوادثه شزرا
تجافت بها عنا الحوادث برهة — وأبدت لنا منها الطلاقة والبشرا
وما هذه الأيام إلا سحائب — على كل أرض تمطر الخير والشرا

و يعترف معاصرو جعفر المصحفى بأنه كان مقدماً فى صناعة الكتابة مفضلاً على طبقته بالبلاغة ، وله شعر كثير مدون يدل فى بعض المقطوعات على تمكنه من الإجادة ، وتصرفه فى أفانين البيان من ذلك قوله فى الغزل

ياذا الذى لم يدع لى حبه رمقا — هذا محبك يشكو البث والأرقا
لو كنت تعلم ما شوقى إليك اذاً — أيقنت أن جميع الشوق لى خلقا

وقوله فى وصف سفرجلة

ومصفرة تختال فى ثوب نرجس — وتعبق عن مسك ذكى التنفس

لها ريح محبوب وقسوة قلبه ولون محب حلة السقم مكتسى
فصفرتها من صفرتى مستعارة وأنفاسها فى الطيب أنفاس مؤنسى
فلما استتمت فى القضيب شبابها وحاكت لها الأنواء أبراد سندس
وكان لها ثوب من الزغب أغبر يرف على جسم من التبر أملس
مددت يدى باللطف أبغى اقتطافها لأجعلها ريحانتى وسط مجلسى
فبزت يدى غصباً لها ثوب جسمها وأعريتها باللطف من كل ملبس
فلما تعرت فى يدى من لباسها ولم تبق إلا فى غلالة نرجس
ذكرت بها من لا أبوح بذكره فأذبلها فى الكف حر تنفسى

ونختم الحديث عنه ونودعه بهذين البيتين من شعره :

لئن سلبونى شخصه ووصاله لما قدروا أن يسلبونى خياله
إذا حجبت عنى الحوادث وجهه أقام الهوى لى حيث كنت مثاله

ولعله كان يستطيع أن يستحضر طيوف أيامه السعيدة السالفة فى أيام محنته لتواسيه فى كربته ، وتؤنس من وحشته ، فلشد ما تنكّر له الحظ وأساءت إليه الأيام ، ولم يكن هو أول ولا آخر من هدمهم ابن أبى عامر فى سبيل مجده ، و بناء فخاره ، وتدعيم سلطانه . وقد أسلم المصحفى آخر أنفاسه فى سنة ٣٧٢ .

فى طريق البناء

خلا الجو لابن أبى عامر بسقوط المصحفى وحقق جانباً من برنامجه ، وفى اليوم الذى عزل فيه المصحفى رقى ابن أبى عامر إلى مرتبة الحاجب ، وأصبح قسيماً لصهره فى السيادة والنفوذ ، وثبتت دعائمه واستقرت مكانته ، وبدا للناس أن محاولة زعزعة سلطانه مركب وعر ، وخطة كثيرة الغمرات ، ولكنه برغم ذلك لقى مقاومة من جانب الحزب الذى كان يريد تنحية هشام عن الخلافة ، وكان زعيم هذا الحزب جؤذر ، فقد كبر عليه أن يصبح مهيض الجناح سليب الحول وتنتزع منه سلطته ويحرم مما كان يحفّ به من الشرف ، وانحاز إليه جماعة من إخوان ابن أبى عامر الذين ساءتهم وأوغرت صدورهم خطواته السريعة وطفراته الواسعة ، وأخذوا يمهدون لحركتهم بما كانوا يشيعون من قالات السوء عن العلاقة بين ابن أبى عامر والسيدة صبح ، ولم يكن ابن أبى عامر يحتمل أقل إشارة إلى العلاقة الصميمة بينه وبين السيدة صبح ، وقد

أدخلت عليه مرة جارية ليبتاعها فغنت شعراً تغزل فيه بعض شعراء قرطبة بالسيدة صبح فأمر ابن أبى عامر(١) بقتلها

واتفق جؤذر وعبد الملك بن منذر بن سعيد صاحب خطة الرد – رئيس المحكمة العليا – وغيرهما من الفقهاء والقضاة على الفتك بالخليفة هشام وخلعه وإسناد الخلافة إلى الأمير عبد الرحمن بن عبيد الله من أحفاد الخليفة الناصر، ومن الذين اشتركوا فى هذه المؤامرة الرمادى الشاعر وكان حاقدا على ابن أبى عامر لأنه كان صديقا للمصحفى وظل وفيًّا له حتى بعد أن جفاه الحظ، وكان حريصاً على الانتقام من ابن أبى عامر ولذا أكثر من هجائه له، ووثق المتآمرون من نجاح خطتهم لأن الوزير زياد بن أفلح حاكم قرطبة انضم إليهم، وفى اليوم الذى اختاروه لتنفيذ خطتهم تحين جؤذر ركوب زياد إلى داره بطرف المدينة ودخل القصر والتمس المثول بين يدى الخليفة، ولما توصّل إلى هشام المؤيد وحاول الفتك به تصدى له أحمد بن محمد بن عروس وبطش به وقبض عليه واستنجد ابن عروس بالحرس فساعدوه فى القبض على جؤذر، ولما علم زياد بن أفلح بأن المؤامرة فشلت أقبل إلى القصر مسرعاً فوبخه ابن عروس فأخذ فى الاعتذار وتعاونا على النازلة وما سلم زياد من التهمة، ولما رد إلى الخليفة الأمر فيما يختار لعبد الملك بن منذر بن سعيد من العقوبة أشار صاحب المدينة زياد بن أفلح

---

(١) كتاب طوق الحمامة صفحة ٣٥ – نشر مكتبة عرفة بدمشق سنة ١٣٤٩

هذا بأن يصلب استبلاغاً فى المثلة وكان يبغى بذلك التقرب إلى ابن أبى عامر ونفى التهمة عن نفسه ، فعمل برأيه وذلك سنة ٣٦٧ وحوكم سائر المتآمرين وقتل الكثيرون منهم و بينهم الأمير عبد الرحمن ابن عبيد الله ، ولا نعلم ما أصاب جؤذراً ومن المرجح أنه صلب ، أما الرمادى فقد كان مصيره أهون من ذلك ولكنه لم يكن مصيراً يغبط عليه ، وكان ابن أبى عامر يرى نفيه ولكن أصدقاء الرمادى شفعوا له عند ابن أبى عامر فسمح ببقائه فى العاصمة ولكنه أعلن أنه سينزل العقوبة بكل من يتحدث إليه أو يتصل به ، وبذلك حكم على الشاعر بالصمت الدائم والعزلة الرهيبة ، ويظهر أنه عفا عنه بعد ذلك وقرّبه ، وقد أظهرت هذه المؤامرة لابن أبى عامر أن ألد أعدائه والراغبين فى هدمه هم زملاؤه الذين كان يدرس معهم الفقه والشريعة فى جامعة قرطبة لما كان يلتهب فى صدورهم من الحسد له ، ولكن الحقد لم يكن هو السبب الوحيد فى تأريث بغضائهم ، فقد كان هناك سبب آخر له أهميته ، وذلك أن أكثر طلبة قرطبة وأساتذتها وفقهائها كانوا من المسلمين الشديدى المحافظة الكارهين للدراسات الفلسفية التى تفتح المجال للشكوك وتوهن العقائد وتشوب صفاء الإيمان ، وقد ظنوا بابن أبى عامر الظنون ورموه بوهن العقيدة لتساهله فى تشجيع الفلسفة واتهموه بأنه من الراغبين فى دراستها والمتعلقين بها ، والواقع أن ابن أبى عامر كان سياسياً عملياً قبل كل شىء ولم يكن بطبيعته نزاعاً إلى الاستغراق فى التفكيرات الفلسفية ،

ولـكنه كان رجلا واسع الفـكر كثير المرونة بعيداً عن التعصب ، ومثل هذه العقلية يرميها المتعصبون المتشددون بالزندقة ، وكان ابن أبى عامر يهمه تثبيت مكانته السياسية ولذلك رأى أن يبذل الجهد فى درء هذه التهمة الخطيرة عن نفسه ، فاستدعى طائفة من العلماء أمثال الزبيدى وابن ذكوان والأصيلى وأحرق بمحضرهم ما كان فى خزائن الحكم من كتب الفلاسفة ووقف من ذلك الوقت موقف المناهض للفلسفة والمدافع عن الدين ، ولم يستطع أحد أن يوجه اليه بعد ذلك تهمة التهاون فى أمر الدين والتقصير فى رعايته .

واطمأن ابن أبى عامر من هذه الناحية وأخذ بعد ذلك يرمى إلى الغرض الأبعد من ضبط السطان والحجر عليـه والاستبداد بالدولة وأمورها وأراد أن يجرى فى ذلك على رسم المتغلبين على سلطان بنى العباس فى الشرق من أمراء الديلم ، وبدأ فى سبك الدولة على قالبه وطبعها بطابعه ، وكان ربما فاوض أصحابه فى الرأى فيشيرون عليـه من الوجه الذى عرفوه والقانون الذى حمدوه فيعدل عن ذلك إلى المذهب الذى شرعه والطريق الذى نهجه والخطأ الذى لا يجهل اقتحامه فيبهت القوم من حسن ما يقع له ، ولما استفحل أمره وكثر حساده برغم ما كان يغمرهم به من سابغ كرمه وما كان يبهرهم من لامع ذكائه وعظيم قدرته وخاف على نفسه فى الدخول إلى قصر السلطان أراد أن يتوثق لنفسه وسما إلى ما سمت إليه الملوك من اختراع قصر ينزل فيـه ويحله بأهله ورجاله

ويجمع فيه فتيانه وغلمانه فارتاد موضع مدينته المعروفة بالزاهرة وأقامها بطرف قرطبة الشرقى على نهر الوادى الكبير وحشد إليها الصناع والفعلة وجلب إليها الآلات الجليلة وتوسع فى تخطيطها وبالغ فى رفع أسوارها فاتسعت فى المدة القريبة وبنى معظمها فى عامين .

وفى سنة ٣٧٠ انتقل إليها ونزلها بخاصته وعامته فبنوا بها وشحنها بالسلاح والأموال والأمتعة ، واتخذ فيها الدواوين وجعل داخلها الأهراء وأقطع ما حولها لوزرائه وكتّابه وقوّاده وحجّابه فابتنوا بأكنافها كبار الدور ونخم القصور وقامت بها الأسواق وكثرت المرافق وتنافس الناس فى النزول بأكنافها للدنو من صاحب الدولة ، وتناهى الغلو فى البناء حوله حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة وكثرت بها العمارة وكتب إلى أقطار الأندلس والعدوة بأن يحمل إلى مدينته تلك أموال الجبايات ويقصدها أصحاب الحاجات وحذّر أن يعرج منها إلى باب الخليفة عائج ، وعطّل قصر الخليفة وجعله بمعزل ، وسدّ باب قصره عليه وجعل فيه ثقة من صنائعه يضبط القصر ويبسط فيه النهى والأمر ، ورتّب عليه الحراس والبوّابين والسّمار والمتنابين يلازمون حراسة مَن فيه ليلاً ونهاراً ويراقبون حركاتهم فى السر والعلانية ، وحجر على الخليفة كل تدبير حتى أصبح مهجور الفناء خفى الذكر محجوب الشخص مسدود الباب لا يراه خاص ولا عام ، ولا يعرف له إلا الاسم السلطانى فى السكة والدعوة

وأشاع ابن أبى عامر أن الخليفة قد فوّض إليه النظر فى أمر الملك وتخلّى له عنه لتفرّغه للعبادة وأثبت ذلك فى أذهان الرعية حتى اطمأنوا إليه مع قوة ضبطه وشدة بطشه ، وانتظم له ذلك بعد أن حصّن قصر الخليفة بالسور الذى أداره حوله وحفر الخندق المطيف به من جانبيه ووكل بأبوابه الوثيقة من يمنع الوصول إلى الخليفة إلا بإذن منه ، فإن تجاوز أحد من الناس هذا الحد عاجله ونكّل به ، فلم يكن ينفذ للخليفة أمر فى داره ولا عن حرمه إلا عن إذنه ، وكان لا تخفى عليه خافية من حركات الخليفة وسكناته .

ويروى الزبيدى معلم هشام أنه كان طفلا واعداً وأنه كان حسن الاستعداد ، جيد التحصيل ، صادق الحكم على الأشياء إلى درجة غير معهودة فى الأطفال ، ولكن أمه السيدة صبح وابن أبى عامر عملا على إضعاف شخصيته وكسف مواهبه ، وليس من المستبعد أن يكونا قد مهدا له السبيل إلى الانغماس الباكر فى اللذات الجنسية إنهاكاً لبنيته ، وتعطيلاً لنماء عقله ، ومن ناحية أخرى وجّهاه وجهة دينية محضة وأدخلا فى روعه أن من الخير له الاتجاه إلى قراءة القرآن والإفراط فى الصوم والصلاة والانقطاع للعبادة والاقتصار على ذلك حتى لا يفتح عينه على حقيقة موقفه ، والحقيقة أن حياة هذا الخليفة المنكود الحظ كانت مأساة أليمة ، فقد جاءته الطعنة المنهرة من الناحية التى كان ينتظر منها العطف والحنان والإخلاص والوفاء ، ورعاية مستقبله ، وتوطيد سلطانه .

ولما ترقى ابن أبى عامر إلى هذا القدر أصبح صهره غالب هو العقبة

الكؤود فى سبيل استئثاره بالسلطة ، فأخذ يعمل فى مكروهه والتوطئة لأسباب هدمه ، وقد نفعه غالب فى إسقاط المصحفى ، ولكنه الآن العقبة الوحيدة فى سبيله ، ولم يكن غالب راضياً عن معاملة ابن أبى عامر للخليفة هشام والحجر عليه وعزّ عليه أن يرى حفيد مولاه الناصر محبوساً فى قصره لا يملك من الأمر شيئاً ، وكان ابن أبى عامر من ناحية أخرى لا يطيق أن يرى له معارضاً فصمم على التخلص من صهره ، ولكن غالباً لم يكن مرىء المأكلة مثل المصحفى ، فليست تكفى لإسقاطه دسيسة من دسائس القصر ، وغالب أقدر قواد الأندلس ولو أنه أراد أن يستنقذ الخليفة و يرد إليه سلطانه الضائع لأطاعه الجيش وهدم ما بناه ابن أبى عامر ، ورأى ابن أبى عامر أن تحقيق غايته ، وتثبيت مكانته ، ودرء الخطر عن نفسه يقتضى أن يكون له جيش ضخم تام الأهبة حسن النظام يدين له بالولاء والطاعة العمياء ، وكان جيش الخليفة فى ذلك الوقت مكوّناً من العرب الأندلسيين وكان تنظيمه الحربى ناقصاً .

ولم يكن اهتمامه بأمر غالب هو الباعث الوحيد على تفكيره فى إعادة تنظيم الجيش فقد كان يفهم الفهم كله تقلب القوم الذين يحكمهم وطبائعهم القلقة وأثبتت له التجارب الخطر الذى ينجم عن إطالة مدة السلم . والدين يحض على إبعاد كلمة الإسلام و إعلاء شأنه ، والغزوات الناجحة ترضى الفقهاء والعامة من ناحية وتزيد فى مجد الأشراف والجنود من ناحية أخرى ، وتتيح لهم فرصة

للنهب والسلب ، واشتغال الجند بتلك الحملات يمنع الثورات ويشغل الناس عن التحدث فى شؤون الخليفة الخاصة ، وأحوال القصر ، وكان ابن أبى عامر رجلاً ممتلئ النفس بالحماسة ، ظامئاً إلى المجد ، يريد توسيع حدود دولته ، و بسط سلطانها ، واسترداد النواحى التى استردها أعداء أمته وانتزعوها ممن جاءوا قبله .

وكان ابن أبى عامر قد أعجب فى أثناء زيارته للمغرب الأقصى بفرسان البربر ، وكانت أحوال مراكش فى ذلك الوقت مضطربة ، ولم يكن ابن أبى عامر قد وجّه عنايته بعد إلى المغرب الأقصى فقد علّمته رحلته إلى هناك أن مثل هذا الإقليم الجديد عبء على خزينة الدولة وقلّ أن ينتفع به فسار على سياسة المصحفى واكتفى بابقاء الحرس فى سبتة ، وعهد فى إدارة الولايات الإفريقية إلى الأمراء الوطنيين ، وكانت هذه السياسة صالحة من وجهة النظر الأندلسية ، ولكنها كانت وبالا على المغرب الأقصى ، فلما رأى بلقين بن زيرى بن مَناد ـ وكان حاكم إفريقية من قبل الفاطميين ثم استقل بعد ذلك خلفاؤه بالحكم ـ أن البلاد متروكة لتحمى نفسها غزاها سنة ٣٦٩ فهرب الأمراء كلهم إلى سبتة وضاقت عليهم أرض العدوة ، فقيل لابن أبى عامر قد أمكنك الله من اصطناع فرسان زناتة واعتقاد المنة عليهم ، فأرسل فيهم يأتوك سراعاً فيجد إحسانك إليهم مكاناً ، ولم يقصر ابن أبى عامر فى اتباع هذه النصيحة وعمل على ذلك وأنفذ كتبه إلى قبائل العدوة يستدعيهم و يتضمن الإحسان

إليهم والتوسعة عليهم، فأسرعوا إلى الأندلس وانثالوا عليه ، وكان يجيء الرجل منهم بلباس خلق على جواد أعجف فيبدل له بلباس الخز الطرازى وغيره ويركب الجواد العتيق المطهّم ويسكن قصراً لم يتصور له فى منامه مثله .

وكان غالب يستطيل على ابن أبى عامر بأسباب الفروسية ويفوقه فى قيادة الجيش والقدرة على تدبير الخطط الحربية ، فلم يجد ابن أبى عامر خيراً من الاستعانة بخبرة الأمير الشجاع جعفر بن على فجدّ فى استجلابه وهو مقيم فى أرض العدوة والياً على من أطاع الخليفة هشام من زنانة ، وتواترت كتب ابن أبى عامر إليه فأسلم العمل إلى أخيه يحيى وعبر البحر إلى الأندلس بجيشه فنزل قصر العقاب بعد أن أعدّ له ما يصلح فيه واستوزره وأحلّه محل الأخ فى الثقة ، وقدّمه على الكفاة ، فوجد عنده ما أحبّه وفوق ما قدّره ، فاعتدل بالبرابرة أمره وقوى ظهره ، وكانت هذه القطعة من البربر نحو الستمائة ومازال بعد ذلك يستدعيهم حتى كثرت جموعهم ، واشتد شرههم ، وكان ابن أبى عامر يبالغ فى برهم ولا يتعب من الاغداق عليهم ، ويدفع عنهم استهزاء الأندلسيين وزرايتهم بهم ، وقد اتفق مرة أنه كان يعرض الجيش فتقدم إليه البربرى واتِرْمار بن أبى بكر البرْزالى — أحد جنود المغاربة — والميدان غاص بالناس ، وقد جلس ابن أبى عامر للعرض ، فقال له بكلام يضحك الثكلى : يا مولاى مالى ولك أَسْكِنّى فإنى فى الفحص .

فأجابه ابن أبى عامر «وماذاك يا وَاتِرمَار ! وأين دارك الواسعة الأقطار ؟»

فقال واترمار « أخرجْتنى عنهـا والله نعمتك ، فقد أعطيتنى من الضياع ما انصب علىّ فيها من الأطعمة ما ملأُ بيوتى ، وأخرجنى عنهـا وأنا بربرى مُجَوّع حديث عهد بالبؤس ، أتراني أبعد القمح عنى ؟ ليس ذلك من رأيى »

فتطلّق وجه ابن أبى عامر وقال « لله درك من فذعي ، لعيك فى شكر النعمة أبلغ عندنا وآخـذ بقلوبنا من كلام كل أشدق متزيد و بليغ متفنن » وأقبل على من حوله من أهل الأندلس فقال « يا أصحابنا هكذا فلتشكر الأيدى وتستدام النعم ، لا ما أنتم عليه من الجَحْد الملازم والتشكى المبرّح » وأمر له بأفضل المنازل الخالية .

وأصبح ابن أبى عامر صبيحة يوم فى مطر وابل غب أيام مثله ، فاستدعى حاجبه وقال له « هذا يوم لا عهد بمثله ولا حيلة للمواظبين لقصدنا فى مكابدته فليت شعرى هل شذ منهم أحد عن التقدير فأغرب فى البكور ؟ أخرج وتأمل »

فخرج الحاجب وعاد إليه ضاحكا وقال « يا مولاى على الباب ثلاثة من البرابرة : أبو النّامِس بن صالح واثنان معه ، وهم بحال من البلل إنمـا توصف بالمشـاهدة » .

فأجابه ابن أبى عامر « أَوصلهم إلىّ وعجل » .

فدخلوا عليه فى حال الملاح بللاً ونداوة فضحك إليهم وأدنى مجلسهم وقال: « خبرونى كيف جئتم ، وعلى أى حال وصلتم وقد استكان كل ذى روح فى كنّه ولاذ كل طائر بوكره ؟ » .

فقال أبو النّامس « يا مولاى ليس كل التجار قعد عن سوقه ، و إذا عذر التجار على طلب الربح بالفلوس فنحن أعذر بإدراكها بالبدَر ومن غير رءوس الأموال ، وهم يتناوبون الأسواق على أقدامهم ، ويذيلون فى قصدها ثيابهم ، ونحن نأتيك على خيلك ، ونذيل على صهواتها ملابسك ، ونجعل الفضل فى قصدك مضموناً إذا جعله أولئك طمعاً ورجاءً ، فترى لنا أن نجلس عن سوقنا هـذا ؟ » .

فضحك ابن أبى عامر ودعا بالكسى والصلات فدفعت لهم ، وانصرفوا مسرورين بغدْوتهم .

وقدّم ابن أبى عامر رجال البربر ، وأخّر رجال العرب ، وأسقط من مراتبهم ليتم له ما أراد من الاستقلال بالملك ، والاستبداد بالأمر ، واستكثر من العبيد والمماليك والعلوج ليقهر بهم من يطاوله .

ولم يكتف بتقريب البربر واصطناعهم ، واجتلاب العبيد وشرائهم ، بل قرّب قوماً من مسيحيي الشمال ، وكانت الحالة فى شمال أسبانيا سيئة من جراء اضطرام الحروب الداخلية وكثرة المتنازعين على العروش ، وزاد عدد السكان وتناقصت الموارد ووسائل العيش ، وأغرت أهل قشتالة وناڤاروليون الأجور العالية ولم يكن لهم وازع من قوة الوطنيـة ، وصدق العقيدة لينأى بهم عن خدمة ابن أبى عامر والارتماء فى أحضانه ، فانضموا تحت رايته ، وأخذ يغدق عليهم ، ويشملهم برعايتـه ، و بسط عليهم عدله ، ولم يكن العدل من شيمة

حكامهم ، فأحبوه وتعلقوا به وأخلصوا له ، وكان بينهم جماعة من الجبليين الأشداء ، قد نسوا بلادهم وأصبحوا مدينين له بكل شيء .

وكان نظام القبيلة لا يزال غالبا على الجيش الأندلسى ، فشرع ابن أبى عامر فى إزالة ذلك ، ووزّع العرب بين فرق البربر والمسيحيين . و بذلك قضى على التقاليد القديمة و بدّل النظام المتبع ، وأبعد الأفراد الذين يشك فى ولائهم إلى الولايات البعيدة والأقاليم النائية ، وأدمج صنائعه والذين يثق بهم من العرب فى فرق الجند المرتزقه .

و برغم كرمه الغامر لم يكن يتساهل مع جنده فى الخروج على النظام ، ولا يغتفر أهون مخالفة ، وقد انتهت هيبته وضبطه للجند إلى غاية لم يبلغها ملك قبله ، فكانت مواقفهم فى الميدان على احتفاله مثلاً فى الإطراق حتى إن الخيل لتتمثل إطراق فرسانها فلا تكثر الصهيل والحمحمة .

ولقد وقعت عينه مرة على بارقة سيف قد سلّه بعض الجند بأقصى الميدان لهزل أو جد بحيث ظن أن لحظ ابن أبى عامر لا يناله ، فقال « علىّ بشاهر السيف » فمثل بين يديه لوقته ، فقال له « ما حملك على أن شهرت سيفك فى مكان لا يشهر فيه إلا عن إذن ؟ »

فقال « إنى أشرت به على صاحبى مغمداً فذَلِق من غمده ! »

فقال « إن مثل هذا لا يسوّغ بالدعوى ! » وأمر به فضربت عنقه بسيفه وطيف برأسه ونودى عليه بذنبه .

وبينما كان ابن أبى عامر يأخذ أهبته ويعد عدته للمعركة التى ستنشب بينه وبين صهره غالب كانت العلاقات بينهما لا تزال حسنة فى الظاهر، وكانت لا تفوته فرصة لاظهار ولائه لغالب ومصانعته ومداراته، ولكن هذا الجندى المجرب لم يكن ليستمر مخدوعاً بمظاهر الملق والمداهنة والاحترام الزائف والولاء المصطنع، واستشف ما وراء هذه التغييرات من غاية بعيدة فزاده ذلك ضيقاً بابن أبى عامر وكراهة له، ولما استقدم ابن أبى عامر جعفر بن على لم يبق عند غالب شك فى نيات صهره وأدرك مغزى سياسته، وأراد أن يمكر به ويستدرجه فدعاه إلى زيارته فى إحدى غزواته وقد حل بظاهر مدينته المدعوة أنتيسة، وأعد له وليمة فى إحدى قلاعها فلما صعد ابن أبى عامر القلعة فى خِف من أصحابه وانفرد به شرع فى عتابه، وشدد عليه النكير، واحتدم الجدل بينهما، واستشاط غالب غضباً، فسب ابن أبى عامر وصاح به قائلاً « يا كلب أنت الذى أفسدت الدولة وخربت القلاع » وسلّ سيفه وكرّ عليه به فضربه وكان بعض الناس حبس يده فلم تتم الضربة، وشجّه وأصابه بجراح أبانت بعض أنامله وأثّرت أثراً كبيراً بصدغه، وفر أمامه وألقى نفسه من رأس القلعة خوفاً من أن يجهز عليه فأصاب عند استقراره ساباط بناء نشب فيه وتخلص جريحاً ونجا من ورطة كانت النجاة فيها غريبة من آيات سعده، وامتنع غالب بمعقله، وبادر ابن أبى عامر إلى مدينة سالم حيث دار غالب وولده فسبق إليها

الخبر ، وضمن له كاتب غالب أمرها فاستولى عليها وعلى جميع ما كان له بها من مال ونعمة ففرّق ذلك كله فى الجيش ولم يستأثر به وقفل إلى قرطبة .

وأصبحت الحرب بينهما لا مندوحة عنها ، ولم يتأخر نشوبها ، ونصب غالب نفسه مدافعاً عن حقوق الخليفة ، وانحازت إلى جانبه بعض الجيوش ، وتلقى مدداً من مملكة ليون ، ونهض ابن أبى عامر فى جموعه إلى مدينة سالم للقاء غالب ، وكان غرسيه - قومس قشتالة - قد دخل إلى بلده عند حركة ابن أبى عامر ليدفعه عنه وهو يرى أنه قاصد لعادته فلما استبان قصده لغالب خرج إليه فى جمع من النصارى فيهم طائفة من البشكنس مع ابن ملكهم رذمير بن شانجة ، فنهد إليهم ابن أبى عامر إلى أنتيسة حتى نزل حصن شنت بجنت لليلتين خلتا من المحرم سنة ٣٧١ ، و برز له غالب وقد عبّأ ابن أبى عامر عسكره أحسن تعبئة فصار فى القلب مع الغلمان وطرائف جند الحضرة ، وصيّر الوزير جعفر بن على مع البرابرة فى الميمنة ، وأبا الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبى وحسن ابن أحمد بن عبد الودود فى معظم أهل الثغور فى الميسرة ، ودارت أرحاء الحرب ثلاثة أيام ، وفى اليوم الثالث وقعت الحرب فى كل جهة واشتدت وحميت ، وأقبل غالب لمّا متع الضحى من هذا اليوم على فرس له عليه درعه السابغة ، وعلى رأسه طشتان مذهب مرتفع السمك قد عصبه بعصابة حمراء وشد جبينه بعصابة أخرى ، وقد قارب فى وقتها الثمانين سنة ، وحوله كبكبة من أنجاد غلمانه وحماة رجاله ، فوقف ينظر فى صفوف ابن أبى عامر مصعداً ومصوباً ، ثم مال

لمن حوله من هؤلاء وأشار إلى الميمنة فقيل له « ابن الأندلسى والبرابرة » فقال شدّوا عليهم وحمل عليهم حملة فضّهم فيها، ولم يثبت قدّامه أحد وانتقضت لجولتهم الميمنة ، ثم عاد غالب إلى موقفه فقال من أولئك وأشار إلى الميسرة فقيل له « معن وصنيعتك ابن عبد الودود مع الجيران والصحابة » فقال « الغادرون أولو القطيعة خصّوهم على اسم الله بحملة » ! وشدّ عليهم ثانية كالليث العادى فانقلعوا قدّامه طائرين لا يلوى أحد منهم على صاحبه ، واستوى له فض الجهتين فى وقت والقلب قائم مكانه قد ضبطه ابن أبى عامر بهيبته وهو على أحر من الجمر يصفق بيده دهشاً ورجلاه تضطربان فى ركابه ينظر من أين يحاط به ولا يشك فى حتفه ومع ذلك يطامن نفسه ويردها على مكروهها فيسكن جأشه ، وقال غالب لأصحابه لما عاد من غمرة الشدة الثانية : كيف ترون عاقبة الصبر ؟ قد كسرنا جناحى القوم و بقى القلب و إنما ثبت من فيه حياء من هذا الأحدب[1] الملعون وليسوا ذوى حفاظ ، فاصدقوا الحملة عسى الله أن يمكن منهم بقدرته » ثم رفع يديه وقال : « اللهم إن كنت تعلم أن بقائى أصلح للمسلمين وأعود عليهم من بقاء محمد بن أبى عامر فأهلكه وانصرنى عليه و إن كان هو أولى بذلك منى فانصره علىّ وأرحنى » وحمل غالب على أثر ذلك وخوّض فى القلب ، وخلط بين صفوفه ، وثار نقع عظيم

(١) المقصود « بالأحدب » هنا ابن أبى عامر وقد وصفه « بالحدب » كذلك الشاعر ابراهيم ابن إدريس ودوزى ينفى عنه الحدب ويقول إنه كان طويل القامة حسن البنية ولم أعثر فى المراجع العربية التى تيسرت لى قراءتها على وصف لهيئته

فقد فيه شخصه ، وسقط فى مجال الخيل ، وأصيب مجدلاً لجنبه ميتاً لا أثر لشىء من السلاح فى جسده ، فقيل إن قربوس سرجه أصاب قلبه ، وأرجّح أنه قضى نحبه بسكتة قلبية ، وسبق إلى ابن أبى عامر رجل من أصحاب غالب يبشره بمقتله فلم يصدق حتى جىء برأسه نخرّ ساجداً وكبّر المسلمون تكبيراً خلع قلوب أعدائهم فولوا على وجوههم طائرين بكل سبيل ولم يكن لهم معرّج على أنتيسة ، وتبعهم المسلمون وقتلوا منهم خلقاً عظيماً .

ولم يكتف ابن أبى عامر بهذا النصر الباهر وصمم على معاقبة أهل ليون لمساعدة خصمه ، فغزا مملكة ليون واقتص منها واقتحم مدينة سَمُّورَة وانتهبها ووضع السيف والنار فى أرباضها وقتل الكثيرين من سكان قراها ودساكرها وهدم الكنائس والصوامع والأديرة ، وتحالف ملكها رذمير الثالث ـ ولم يكن قد بلغ العشرين ـ مع غرسيه فرناذ قومس قشتالة ومع ملك ناڤار وتقدم الثلاثة للاشتباك فى معركة مع ابن أبى عامر فهزمهم عند مدينة روطة Rueda فى جنوب غربى شنت منكش Simancas وسقطت بعد ذلك شنت منكش المنيعة فى يد ابن أبى عامر وقتل الكثيرين من سكانها ، واستأسر فريقا منهم ، وزحفت جموعه بعد ذلك إلى مدينة ليون وأسرع رذمير ليدافع عنها ويمنع تقدم ابن أبى عامر واستطاع أن يرد كرة جيوش ابن أبى عامر وكان يراقب سير المعركة من فوق منصة نصبت له فلما رأى ارتداد جنوده تملّكه الغضب ، وثار ثائره ، ووثب من فوق المنصة ، ونزع خوذته المذهبة ، وانكبّ على

الأرض ، وعرف رجاله معنى هـذه الحركة وكانت تلك عادته عندما يعبر عن غضبه لتقصيرهم فى القيـام بواجبهم ، وكان لرؤيتهم رأسه العارى من الخوذة تأثير سحرى فى نفوسهم فاعتذروا عن ارتدادهم ، وشدّوا على العدو شدّة قوية ، فلم يقو على الثبات ، ولاذ بالفرار حتى أبواب مدينـة ليون ، واضطر ابن أبى عامر إلى العودة لقرطبة لدخول الشتاء ، ولما عاد مظفراً قاهراً لخصومه وأعدائه تسمّى بالمنصور ، وأمر أن يُحيّا بتحية الملوك ونفذت الـكتب والمخاطبات والأوامر باسمه ، وأمر بالدعاء له على المنابر باسمه عقب الدعاء للخليفة ، ومحا رسم الخلافة بالجملة ولم يبق لهشام المؤيد من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء على المنابر ، وأخـذ الوزراء بتقبيل يده ثم تابعهم على ذلك وجوه بنى أمية فـكان من يدخل عليه من الوزراء وغيرهم يقبّلون يده ، وإذا بدا لأبصارهم طفل من ولده قاموا إليه فاستبقوا ليده تقبيلاً ، وعموا أطرافه لثماً ، وهكذا ساوى طالب قرطبة الخليفة فى هذه المراتب حتى تناهت حاله فى الجلالة والقوة .

وبدا للناس أن المنصور قد أصبح لا يطاوله مطاول ، ولا يستطيع أحد زعزعة مكانته ، وهدم نفوذه ، بيد أن المنصور كان لا يرى ذلك ولا يذهب هذا المذهب ، وكان هناك رجل شريف المحتد جليل القدر معروف المـكانة له فى نفوس البربر مكانة باسقة ، وقد أعانه هذا الرجل فى محاربة غالب ولـكنه قد تخلص من غالب فما حاجته إلى هذا الرجل الذى قد يصبح منافساً له مرهوب الصولة ؟ كان هذا الرجل هو الأمير الشجاع جعفر بن على الذى تقلبت على

عينه الدنيا كثيراً وأقبل عليه الحظ وأدبر غير مرة ، وكان لجعفر منافسون وخصوم ألداء من أشراف الأندلس ورجالاتها ، وفى ليلة من الليالى التى لم يكن يصل فيها إلى المنصور أحد حضر إلى بابه أبو الوليد محمد بن جهور — أحد أبناء البيوتات الأندلسية — واستأذن عليه وأدرك المنصور أنه لم يحضر فى ذلك الوقت إلا لأمر ذى بال فوارى الحرم وكسر رائحة النبيذ وأذن له ، وأصغى إليه ، فأطلعه على اختلاف البربر إلى جعفر بن على بقصر العقاب ، وأوصاه بالحذر ، فقبل المنصور نصيحته لأنها صادفت هوى فى فؤاده ، وواطأ على قتله أبا الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبى فارس العرب فى الأندلس مع طائفة من أصحابه الأندلسيين ، ففى ليلة الأحد لثلاث خلون من شعبان سنة ٣٧٢ دعاه المنصور إلى حفلة ساهرة مكراً منه وحيلة لقتله ، ولما توجه الساقى بكأسه إلى المنصور قال له « اسقها أعز الناس علىّ » . فأمسك الساقى حيرة لكثرة من ضم المجلس من العلية ، فزجره ابن أبى عامر وقال « ناولها الوزير أبا أحمد عليك لعنة الله » فقام جعفر وقد أعجبه هذا الإطراء فتناولها على قدمه ، واستخفه الطرب حتى قام يرقص فلم يبق أحد بالمجلس إلا فعل كفعله ، وأميلت إليه الكؤوس حتى ثقل وانصرف فى جوف الليل ثملاً مترنحاً مع بعض غلمانه ، فخرج إليه معن وأصحابه فلم يكن فيه امتناع لما كان عليه من السكر فأخذته السيوف حتى برد وحزّ رأسه ويده اليمنى وحمل إلى ابن أبى عامر فأظهر الحزن عليه .

وهكذا كانت خاتمة صاحب المسيلة وأمير الزاب السابق وأحد النيّرات الثلاثة فى قول ابن هانئ يمدحه :

المدنفان من البرية كلها جسمى وطرف بابلى أحور

والمشرقات النيّرات ثلاثة الشمس والقمر المنير وجعفر

ولما أسرع المنصور يطوى الدولة طيًّا وينشئها خلقاً جديداً منسوباً إليه معروفاً باصطناعه وفى لأصحابه القدماء ، وزملائه فى يوم متنزه الناعورة ، وحقّق ما وعدهم به ، فاختار ابن عمه عبد الله بن عمرو بن أبى عامر المعروف بابن عسقلاجة حاكماً للمدينتين ـ قرطبة والزاهرة ـ وهكذا كان طالب قرطبة يدمّر أعداءه ومنافسيه ويفى لأصدقائه القدماء إذا كان لا يخشاهم على سلطانه وكأنما عناه أبو الطيب بقوله :

فتى كالسحاب الجون يخشى ويرتجى يُرَجّى الحيا منها وتخشى الصواعق

بلوغ الذروة

كانت الممالك الأسبانية النصرانية فى القرن العاشر الميلادى ـ وهو يوافق القرن الرابع الهجرى ـ فى شقاق دائم ونزاع مستمر ، وكان توحيد جهودها ولم شعثها هو الطريق الوحيد لخلاصها وحفظ كيانها ، ولكن الكراهة المتأصّلة والعداوة المتبادلة بين الولايات المختلفة كانتا تعوقان ذلك ، وكان الأشراف يطمعون فى العرش و يتوقون إلى بسط النفوذ واستغلاله ، وقد استغوت الوعود الخلاّبة والمرتبات الضخمة الكثيرين من أشجع المحار بين الأسبانيين فكانوا يعملون جنداً مرتزقة فى جيش الخليفة ، ولما اتسعت رقعة الولايات الإسلامية وتناقصت أملاك المسيحيين ازداد الخلاف بين الأمراء والقوامس الأسبانيين والتمس بعضهم العون من الخليفة ، وقبل فرض الجزية و إعلان الطاعة والاعتراف بسيادة الخليفة ، وأصبحت قرطبة ملاذاً للكثيرين من الملوك المغضوب عليهم والأمراء المخلوعين، وكانوا يسعون لمناصرة أحزابهم وشيعتهم ، وكانت مصلحة المسلمين فى زيادة هذه الخلافات والاستفادة من الموقف فى تأييد سلطانهم و إعلاء كلمتهم .

وقد ساءت أحوال ليون الداخلية بعد انتصار المنصور على ملكها رذمير الثالث ، وكانت هزائمه وبالاً عليه ، فقد رغب أشراف ليون فى عزل الأمير الذى خانه الحظ وتنكّر له الدهر ، وهو برغم ذلك يتكبّر ويحاول أن يكون طاغية ، وقامت ثورة فى جليقية حيث اجتمعت كلمة الأشراف على تنصيب برمند عم رذمير ملكاً عليهم ، واحتفل فى سنة ٣٧٢ بتتويجه فى كنيسة شنت ياقب ، فأسرع رذمير بجيشه إلى الحدود بين ليون وجلّيقية ووقعت معركة شديدة ولكنها لم تكن فاصلة ، واعتصم بعدها رذمير بمدينة أُسترْقة ، وتفادياً للهزيمة اضطر إلى التقرب من المنصور والاعتراف بسيادته والتماس معونته ، وهلك على أثر ذلك فى أوائل سنة ٣٧٤ ، وحاولت أمه أن تحكم وقدمت الطاعة للمنصور ، ولكنه تخلّى عن مناصرتها وأدرك برمند أنه سيعجز عن إخضاع الأشراف وكسر شوكتهم إن لم يخطب ود المنصور ويقدم له الطاعة ، والظاهر أن الشروط التى قدّمها كانت أكثر ملاءمة للمنصور من الشروط التى تقدمت بها أم رذمير فقد أيّده المنصور وأرسل إليه جيشاً من المغاربة لمظاهرته ، وتمكّن من توطيد سلطانه ، ولكنه أصبح خاضعاً للمنصور وبقى جزء كبير من جيش المنصور يحتل بلاده ، ويراقب حركاته ، ويفرض عليه الحماية من أعدائه ، ولما اطمأنّ المنصور من ناحية ليون صرف همه إلى قطلونية ، وكانت من أقطاع ملوك فرنسا ولذا أمسك الخلفاء والأمراء عن مهاجمتها خشية الاشتباك فى حرب مع فرنسا فاستمتعت طويلاً بالسلام والأمن

ولكن المنصور لم تساوره مثل هذه المخاوف ، فقد كان يعلم أن فرنسا كانت فى ذلك الوقت مرتبكة الأحوال فريسة للفوضى ، وكان المجتمع الفرنسى فى طور من أطوار الانتقال ، وقد استعر الخلاف بين الملك وسادة الأقطاع ، ولم تكن عند حكومة فرنسا موارد كافية للإنفاق على حرب خارجية قد يطول أمدها ، ولم يكن أشرافها المتكبرون المختالون مستعدين لإرسال رجالهم للاشتراك فى هذه الحملة ، ولإلمام المنصور بهذه الحقائق كلها جهّز جيشاً ضخماً وخرج على رأس هذا الجيش من قرطبة فى أواخر سنة ٣٧٤ ومعه طائفة من الشعراء لتتغنّى بأمجاده وتصف مواقفه وجعل طريقه على شرقى الأندلس ، فمرّ بالبيرة وبَسْطة ولُورَقَة ودخل مُرْسِية قاعدة تُدْمِير فتضيّفه وجُنده أبو عمر أحمد بن خطاب المعروف بالخازن ، وكان فى نهاية من الثراء والسرو والسماحة ومكث المنصور عنده ثلاثة عشر يوماً وهو يقوم به وبجنده وبخدمه جميعاً على مقاديرهم وينفذ إلى باب كل واحد منهم كل يوم وظيفة من الدقيق واللحم والفاكهة والقضيم (١) ، وصار جميعهم فى كفالة ابن خطاب ما بين الوزير والشرطى ولم ينفق أحد منهم لنفسه طول هذه المدة مثقال ذرة ، وكان يجدد للمنصور كل يوم نوعاً من الأطعمة والفواكه لا يشبه الذى قبله ، وكانت الأوعية تختلف بحسب اختلاف الأنواع التى تقدّم ، وبلغ من أمره أن صنع له ماء الحمام من ماء الورد ورحل ابن أبى عامر متعجباً مما تبرع به ابن خطاب مستغرباً لمذهبه فى التحدث بنعمة ربه بعد أن أثنى عليه ، وحطّ جملة من خراج ضياعه وأمواله ، وكان

---

(١) القضيم هو شعير الدابة .

المنصور فيما بعد يصف نعمة ابن خطاب وسروه ويقول « هى أحق نعمة بالحفظ وأولاها بالزيادة لسلامتها من الغمط وبعدها عن الجحود وقيامها بفرض التزكية » ويوعز إلى عماله بتدمير بحفظ أسبابه ، وتحرى موافقته فى كل ما يرغبه .

وسار المنصور بجيشه إلى قطلونية وهزم الكونت بُرّيل وتقدم إلى بَرْشِلُونة واقتحمها وقتل معظم جندها وأهلها وأسر الباقين وخرّبها وأشعل فيها النيران وقبل برّيل أن يدفع جزية عالية صوناً لبلاده من الخراب والتدمير .

وكان المنصور رجلاً لا يعتريه الكلال ولا تفتر له همة ، فبعد عودته إلى قرطبة تناول مشكلة المغرب الأقصى ، وقد ظلّ هذا الإقليم خاضعاً لبُلُقين بن زيرى حاكم إفريقية من قبل الفاطميين ولكن فى أواخر عهده وبعد موته فى أواخر سنة ٣٧٣ أخذت الشيعة الأموية تسترد جانباً من نفوذها ، وخلعت مدن كثيرة طاعة الفاطميين مثل سجلماسة وفاس ، وفى ذلك الوقت ظهر بالمغرب الأقصى الحسن بن كنون الذى تركناه فى الفصل الثالث مقيماً عند الخليفة الفاطمى العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله ، فقد ظل فى كنف العزيز بالله يتحيّن الفرص ويستنجز العزيز أن يبر بوعده بمساعدته والأخذ بثأره واسترداد عرشه ، ولان له العزيز فى النهاية وكتب له بعهده على المغرب وأمر عامله بلقين أن يقويه بالجيش وزوّده العزيز بالمال ، فسار الحسن إلى بلقين فأعطاه جيشاً من ثلاثة آلاف فارس وافتتح بلاد المغرب وسارعت إليه قبائل

البربر بالطاعة ، فشرع فى إظهار دعوته ، واتصل خبره بالمنصور فلم يطق السكوت على ذلك فبعث إليه ابن عمه الوزير عمرو بن عبد الله - ابن عسقلاجة - حاكم المدينتين فى جيش كثيف ، وقلّده أمر المغرب وسائر أعماله ، وأمره بحرب الحسن بن كنون ، فنفذ لوجهه وجاز البحر إلى سبتة ، وخرج لحرب الحسن فأحاط به وحصره أياماً ، ولم تطل مقاومة الحسن وأسقط فى يده ولم يجد حيلة وطلب الأمان لنفسه على أن يسير إلى الأندلس كمثل حاله الأول ، فأعطاه الوزير من ذلك ما وثق به ، وكتب إلى ابن عمه يخبره فأمره بتعجيله إلى قرطبة موكلاً به فبعثه ، ووصل الخبر إلى المنصور بقدومه وجوازه ، فلم يمض أمان ابن عمه وأنفذ إليه من يقتله فى طريقه فقتل ليلاً وقطع رأسه ، ودفن جسده ، وحمل الرأس إلى المنصور ، وذلك فى سنة ٣٧٥ ، والظاهر أن ابن عسقلاجة تجاوز حدوده فى الأمان الذى أعطاه للحسن دون أن يرجع إلى المنصور ، وكان الحسن رجلاً كثير الأطماع دائم التقلب والذبذبة غير مأمون الجانب فلم يكن المنصور يسيغ التسامح فى معاملته وهو الذى يعرف ماضيه وكثرة نقضه للعهود ، ولعل هذا هو الذى حدا المنصور على رفض أمان ابن عسقلاجة وقتل الحسن ، وكان الحسن فظاً غليظاً شديد الجرأة قاسى القلب قليل الشفقة وكان فى إبّان سلطانه إذا ظفر بأحد من أعدائه أو قاطع طريق أمر به فطرح من ذروة قلعته الشماء المسماة بحجر النسر ، ولكن قتله على هذه الصورة أظهره بمظهر الشهيد واعتبر الناس عمل المنصور بغياً واثماً لأن أمان قائده أمانه ،

وكثرت الأراجيف حول مصرعه وأشيع أن فى الليلة التى قتل فيها هبّت ريح عاصف على الجند الموكّلين به ، وصبّتهم على وجوههم ، وسلبتهم أثوابهم ، وحملت رداء حسن المقتول فلم يجدوه ، وأظلم عليهم الأفق حتى خافوا على أنفسهم ، وكثر اللغط فى هذا الموضوع حتى ساور المنصور القلق وخشى العاقبة ، ولذا اشتدّ غضبه لما علم أن ابن عمه عمرو بن عسقلاجة يتنقّصه و يغضّ منه و يتسحّب عليه ، فاستقدمه من المغرب واتهمه باحتجان الأموال ورماه بالخيانة العظمى وقتله فى سنة ٣٧٥ ، فضاعف ذلك السخط على المنصور ، وأضيف إلى ذلك السخط العطف على ابن عسقلاجة ، وحاول أقارب ابن كنون من الأدارسة المقيمين فى الأندلس أن يثيروا الفتنة فأخرجهم المنصور من الأندلس وقد صكّ أحدهم – وهو إبراهيم بن إدريس الحسنى – المنصور بقصيدة من الهجاء اللاذع قبل خروجه من الأندلس يقول منها:

فيما أرى عجب لمن يتعجب … جلت مصيبتنا وضاق المذهب
إنى لأكذب مقلتى فيما أرى … حتى أقول غلطت فيما أحسب
أيكون حياً من أمية واحد … و يسوس ضخم الملك هذا الأحدب
تمشى عساكرهم حوالى هودج … أعواده فيهن قرد أشهب
أبنى أمية أين أقمار الدجى … منكم وما لوجوهها تتغيب
غابت أسود منكم عن غابها … فلذاك حاز الملك هذا الثعلب

ووجد « الثعلب » نفسه فى حاجة ماسة إلى أن يقوم بعمل سريع يسترد

به مكانته الشعبية ويستدرك ما أصاب سمعته الأدبيـة ، فصمم على توسيع أطراف الجامع الكبير الذى أصبح لايتسع لأهل قرطبة والجيوش الإفريقية ، فبدأ ينزع ملكية البيوت المقامة على الأرض المطلوبة ، وتحرى تطييب نفوس أرباب الدور والمستغلات الذين اشتريت منهم للهدم لهذه الزيادة بانصافهم فى الثمن أو بمعاوضتهم معاوضة رابحة ، وصنع فى صحنه الجب العظيم قدره الواسع فناؤه ، وامتنعت إحدى السيدات طويلا عن تسليم دارها لأن بحديقة تلك الدار نخلة عزّ عليها أن تفارقها، ولما ألحّ عليها رجال المنصور بالرجاء ومنّوها الأمانى اشترطت أن يقدم لها عوضاً عنها دار بحديقتها نخلة سامقة مثل نخلة دارها التى ستفارقها وكانت هناك صعوبة فى النزول على هذا الشرط ولكن المنصور لما بلغه ذلك قال « لا مندوحة عن إجابة طلبها ولو أفرغنا الخزانة[١] » ، وكان لهذا السخاء وقعه الحسن فى النفوس ، ومن أعظم ما أعين به المنصور فى مختلف مراحل حياته سعة جوده وكثرة بذله ، وكان فى ذلك أعجوبة الزمان ، ولم يكن كرمه مجرد سياسة موضوعة ليتألف بها القلوب وإنما كان الكرم عنصراً من عناصر شخصيته ، وطبيعة من طبائعه ، فلما بدأ بنيـان قنطرة على نهر قرطبة الأعظم فى سنة ٣٧٨ كانت هناك قطعة من أرض لشيخ من العامة ، ولم يكن للقنطرة عدول عنها ، فأمر المنصور أمناءه بارضائه فيهـا ، فحضر الشيخ عندهم فساوموه بالقطعة وعرّفوه وجه الحاجة إليهـا وأن المنصور لا يريد إلا إنصافه

---

(١) اعتمدت فى رواية هذا الخبر على دوزى لأنى لم أهتد إليه فى مراجعى العربية .

فيها ، فرماهم الشيخ بالغرض الأقصى عنده فيما ظنّه أنها لا تخرج عنه بأقل من عشرة دنانير ذهباً كانت عنـده أقصى الأمنية وشرطها صحاحاً ، فاغتنم الأمناء غفلته ونقدوه الثمن وأشهدوا عليه، ثم أخبروا المنصور بخبره فضحك من جهالته ، وأنف من غبنه ، وأمر أن يعطى عشرة أمثال ما سأل ، وتدفع له صحاحاً كما قال فقبض الشيخ مائة دينار ذهباً فكاد يخرج من عقله ويجنّ عند قبضها من الفرح ، وجاء محتفلاً فى شكر المنصور وصارت قصته خبراً سائراً .

وقبل أن يستتم المنصور توسيع جامع قرطبة الكبير ثارت الحرب بينه و بين برمند ملك ليون ، وكان برمند قد ضاق ذرعاً بجند المسلمين المقيمين فى بلاده ، وشكا عيثهم غير مرة للمنصور ، فأعرض عنه ولم يحفل به حتى نفد صبر برمند ، واستجمع شجاعتـه ، وأجلى جند المسلمين عن بلاده ، فرأى المنصور ضرورة تقليم أظافره ، وكسر شوكته ، ورحّب المنصور بانطلاق الحرب من عقالها لأنها تلهى الشعبَ عن الخوض فى سياسة الدولة ، وطرائق الحكم ، وتشغله بطلب المجد والشهرة والتحدث عن الفتوح والوقائع ، وسرعان ما وجد الشعب مادة خصبة للحديث تثير طلعته ، وتصرفه عن غيرها ، فقد استولى المنصور على مدينـة قُلُمْرِيَّة ودكّها دكاً حتى تركها سبعة أعوام خاوية على عروشها وذلك فى أوائل سنة ٣٧٧ ، وفى السنة التالية عبرت جيوش المنصور نهر دُوَيْرَة وتقدمت إلى ليون تقدماً حثيثاً وهى لا تلوى على شىء ، وتركت وراءها الخراب والدمار ، واحتمى برمند بمدينة سمّورة وكان فى مأموله أن

المنصور سيبدأ بمهاجمتها ، ولكن المنصور لم يقصد إليها ونهد إلى ليون .
واستطاعت المدينة المقاومة لضخامة بروجها ومناعة أسوارها ولكن جيوش
المنصور استطاعت أن تحدث ثغرة بأحد أسوار المدينة قرب بابها الغربى ونفذ
منها المسلمون إلى المدينة واستباحها المنصور وسفك دماء أهلها ، و بعد المقتلة
نسف المدينة نسفاً فلم يترك بها جداراً قائماً ولا حجراً منصوباً وجعلها قاعاً
صفصفاً ، وصرف جيوشه بعد ذلك إلى سمّورة وحرق ما صادفه فى طريقه إليها
من البيع والصوامع وضرب حولها الحصار ففرّ عنها برمند وأسلمها إلى المنصور
فانتهبها ولم يبق لبرمند إلا حصون يسيرة بالجبل الحاجز بين بلاده والبحر المحيط
وخضعت القوامس للمنصور وأقرّوا له بالسيادة .

وعاد المنصور بعد هذه الانتصارات الباهرة إلى قرطبة حيث كانت تنتظره
مشكلات عدّة فى حاجة إلى النظر السريع والحل الحاسم ، فقد علم أن جماعة
من أعيان الدولة ورجالها البارزين يأتمرون به ، وأن ابنه عبد الله ضالع معهم ،
وكان عبد الله شابًّا فى مقتبل العمر لا تتجاوز سنه الثانية والعشرين وكان
فارساً صنديداً ، ولكنه لم يكن محبوباً من أبيه الذى كان يشك فى بنوّته ،
وكان عبد الله يجهل ذلك ، وقد تغيّرت نفسه على أبيه لإحظاء عبد الملك أخيه
الأصغر منه سنًّا ، وكان عبد الله يرى أنه أشجع وأفهم وأرجل وأفرس من
أخيه عبد الملك ، وأن أباه عين الظالم له فى التسوية بعبد الملك فكيف فى
تقديمه عليه ، فكان فى قلبه على أبيه سعير نار ، ونزل عبد الله ضيفاً على

عبد الرحمن بن مُطَرِّف التُّجِيبي صاحب سَرَقُسْطَة والثغر الأعلى ، وكان عبد الرحمن قد فكّر فى شأن من أتلفه المنصور من كبار رجال الدولة وكيف استنزلهم من عليائهم ، واستذلّ كبرياءهم ، ورأى أنه لم يبق غيره ، وخشى أن يلحقه بالجماعة ، فسوّل له القدر المتاح التدبير على المنصور ، فلما أقام عبد الله بسَرَقُسْطَة عند عبد الرحمن أدرك من معاريض حديثه وفلتات لسانه أنه ناقم على أبيه ، واعتقد عبد الرحمن أن عبد الله آلة صالحة للانتقام من أبيه وأن الفرصة سانحة ، ولوّح له فى بادىء الأمر تلويحات غامضة ، فلما اطمأنّ إليه وعرف دخيلة نفسه واتجاه تفكيره كشف له صفحته ، وصارحه بما يجول فى نفسه ، وتوافت أهواؤهما واتفقا على الوثوب بالمنصور فى أول فرصة على أن يقسّما مُلك الأندلس ، فالحضرة ـ أى قرطبة وجنوب الأندلس ـ لعبد الله والثغر ـ شمال الأندلس ـ لعبد الرحمن ، وشرعا فى إحكام سبيل ذلك والتماس وجهه ، وساعدهما عليه جماعة من وجوه أهل قرطبة من الجند والخدَمة وغيرهم فيهم الوزير عبد الله بن عبد العزيز المروانى صاحب طليطلة ، وكانت المؤامرة محكمة ، ولكنها كانت من اتساع الأطراف بحيث لا يمكن أن تظل طويلاً مستخفية ، وانبثت أراجيف وترامت إشاعات إلى المنصور ، وأخذ الإبهام ينجلى عنها شيئاً فشيئاً حتى تحقق المنصور صحّتها ولم يشكّ فيها ، ورأى المنصور أن يصدم الكيد الخفىّ بمثله فاستدعى ابنه عبد الله من سرقسطة واستأنف له كثيراً من التقديم والمبرة خديعة ومغالطة ، وصرف المروانى عن طليطلة صرفاً

جميلا ، ثم صرفه عن الوزارة بعد مديدة وألزمه داره ، وخرج فى عقب ذلك غازياً إلى قشتالة بعد أن شلّ حركة اثنين فى طليعة المتآمرين ، وتوافت إليه أمداد الثغر وفيهم عبد الرحمن بن مطرف ورجال سرقسطة ، فلما صاروا بوادى الحجارة أطبق أهل الثغور على الشكوى من عبد الرحمن بدسيسة من المنصور لهم فى ذلك حيلة منه ، وذكروا فى شكواهم أنه يحتبس أرزاقهم ، ويحتجن لنفسه ، فصرفه المنصور عن سرقسطة فى منسلخ صفر سنة ٣٧٩ وقلّدها مكانه ابنه يحيي الملقّب بسماجة إطماعاً لقومه التجيبيين فى المحافظة على الولاء للمنصور ولبث عبد الرحمن فى العسكر متردداً إلى أن قبض عليه يوم الثلاثاء لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول وسخط عليه المنصور وأمر بحسابه ولم يشر المنصور أدنى إشارة إلى اشتراك عبد الرحمن فى المؤامرة ، ولما ثبتت عليه تهمة اختلاس الأموال قتل بالزاهرة ، واستدعى المنصور ابنه عبد الله إلى عسكره خشية أن يحدث حدثاً بأنفته ، فوافى العسكر فرفق به أبوه وأمّل استصلاحه ، وقد تباعد ذلك عليه لسقم سريرته وشدة حقده ونازل المنصور أثناء ذلك مدينة شنت إشتبن ، فلما اشتغل المسلمون بالقتال فرّ عبد الله بن المنصور من العسكر فى ستة نفر من غلمانه فلحق بغرسية بن فرذلند صاحب ألبة فقبله وأجاره على أبيه ، فتحرك المنصور لغزو غرسية ومطالبته باسلام ابنه إليه وأقسم له أنه لا يقلع عنه حتى يمكنه من ولده ، وأصرّ غرسية على الامتناع من ذلك فهزم المنصور غرسية وفضّ جمعه

واشتق بلاده وافتتح حصن وخشمة عنوة وأسكنه المسلمين ، فضرع غرسية فى مسالمته على ما شاء من شروطه فى عبد الله وغيره فعقد له المنصور على ذلك ، فوكل غرسية بعبد الله جماعة من العلوج وحمل عبد الله وأصحابه على البغال ، وخرج سعد الخادم يستقبل عبد الله فدنا من سعد وهو على بغل فاره مرتفع الحالية ، وكان يرتدى ثوب وشى عجيب الصنعة ، وهو متطلق ناعم البال قوىّ الرجاء فى الإقالة ، فقبّل سعد يده وأنّسه وهوّن عليه الخطب ، ثم تخلّف عنه بقرب الوادى الجوفى ووكل به من يتولّى قتله ، فحفّ به الموكلون وأعلموه بأنه قد حلّ به ما كان يحذره وأمروه بالنزول فلم يمتنع لهم وترجّل ومشى إلى السيف ثبت الجنان وظهرت منه عند الموت صرامة عجب لها من شاهده ، وتقدم إليه ابن خفيف الشرطى فضرب عنقه صبراً عند غروب الشمس ، وأنفذ المنصور رأس ابنه إلى الخليفة مع كتاب الفتح ، ودفن جسده فى الموضع الذى قتل فيه ، وكانت سنه يوم قتل ثلاثا وعشرين سنة ، أما عبد الله المروانى فقد هرب والتجأ إلى برمند ، وازداد ابن أبى عامر بما فعله بابنه هيبة وملئت قلوب الناس منه ذعراً ، وتكاموا فى ذلك كثيراً ورجموا فيه الظنون ، ولم يتوجه لأحد فيه سبب يقضى بقتله ، واجترأ عليه مرة أحد أعيان البربر واسمه زطرزون وقد بسطه فى بعض المجالس فقال له « يا مولاى لم قتلت عبد الله ابنك » ؟ ووصف شجاعته وخصاله فقال له المنصور « لا يسؤك ذلك فلو لم أفعل لقتلنى » .

ولم يكتف المنصور بالقضاء على المؤامرة فى مهدها ولم ينس لغرسية أمير

قشتالة ايواءه لابنه عبد الله ، ولكي يقتص منه أغرى به ابنه شانجة وحرّضه على أن يثور بأبيه ، وظاهر أعيان القشتاليين شانجة فشقّ عصا الطاعة وحارب أباه وأيّده المنصور واستولى على حصن شنت اشتين وقلونيـة ، وكان المنصور تائقاً إلى انهاء هذه الحرب ، وعرف رجال حاشيته الذين كانوا يتحرّون مرضاته هذه الرغبة فكانوا يتقربون اليه بأن يؤكدوا أن غرسية لا يستطيع الثبات طويلاً ، واتفق فى ذلك الوقت أن صاعد بن الحسن اللغوى ـ وسنتحدث عنه فيما بعد ـ أهدى إلى المنصور أيلاً وكتب معه بهذه الأبيات .

يا حرز كل مخوّف وأمان كـل مشرّد ومعزّ كل مذلّل
يا سلك كل فضيـلة ونظام كل جزيلة وثراء كل معيّـل
جدواك أن تخصص به فلأهله وتعم بالإحسان كل مؤمّل
الله عونك ما أبرّك بالهـدى وأشد وقعك بالضلال المشعل
ما ان رأت عينى وعلمك شاهد جدوى علائك فى معمّ مخول
مولاى مؤنس غربتى متخطفى من ظفر أيامى ممنّع معقـلى
عبد جذبت بضبعه ورفعت من مقداره أهـدى إليك بأيل
سميته « غرسـيـة » و بعثته فى حبله ليصح فيه تفاؤلى
فلئن قبلت فتلك أنفس منـة أهدى بهـا ذو منحة وتطوّل

فشاءت المصادفات أن يؤسر غرسية فى ذلك اليوم بعينه الذى بعث فيه صاعد بالأيل وسماه « غرسية » متفائلاً بأسره ، فقال المنصور فى هـذه القضية

« إنه لم يتفق لصاعد هذا الفأل الغريب إلا لحسن نيته وسريرته وصفاء باطنه » ورفع قدره من ذلك اليوم فوق ما كان ورجّحه على أعدائه ، ومات غرسية بعد أسره بخمسة أيام بسبب ماأصيب به من جراحات وتفرد شانجة بالسلطة ، ولكنه اضطر إلى أن يدفع الجزية للمسلمين وذلك سنة ٣٨٥ ، وفى أواخر تلك السنة هاجم المنصور برمند ملك ليون عقاباً له على ايوائه عبد الله بن عبد العزيز أحد المتآمرين ، وكان برمند مهيض الجناح مغلوباً على أمره قد استولى الأشراف على أملاكه وقطعانه ولم يتركوا له من الأمر شيئاً وعرف أن تحديه للمنصور كان ضرباً من الحماقة وعرف بعد فقد أسترقة التى اتخذها حاضرة له بعد تخريب ليون أن السبيل المأمون هو طلب الصلح ، وقبل المنصور ذلك على شريطة أن يسلم إليه عبد الله بن عبد العزيز ولم يسع برمند إلا القبول والاستسلام ، وعاد المنصور إلى قرطبة ومعه عبد الله فسجنه بالمطبق بعد أن طيف به قرطبة على جمل وهو مقيد ، وأظهر فى السجن تخاذلاً وجبناً فعفّ المنصور عن قتله احتقاراً لشأنه فظل محبوساً ولم يطلق سراحه إلا بعد موت المنصور .

وأحاطت هذه الانتصارات الباهرة المتواترة اسم المنصور بهالة من النور ورفعته إلى مصافّ الأبطال ، وأعلت من بنيانه و بسطت من سلطانه ، وجعلته الحاكم المطلق المتصرف فى شؤون الدولة جليلها ودقيقها وظاهرها و باطنها ، ولكن المنصور لم يكتف بأن يكون الحاكم الفعلى للأندلس ، بل كان

يستشرف إلى غاية كبرى ويعمل على تحقيقها بمثابرة لاتكلّ وخطوات مطّردة مقدّرة ، هذه الغاية هى أن يصبح الحاكم الشرعى للأندلس ، ففى سنة ٣٨١ تنازل عن لقب « الحاجب » ـ أو رئيس الوزارة ـ وخلعه على ابنه عبد الملك ـ وكانت سنه لا تتجاوز الثامنة عشرة ـ وقدّم ابنه عبد الرحمن للوزارة ، واقتصر على التسمّى بالمنصور ، وأمر أن يكتب فى الرسائل « من المنصور بن أبى عامر وفّقه الله إلى فلان » بحذف اسم الحجابة ، ويذكر اسم ولده عبدالملك بخطة الحجابة والقيادة العليا وسائر خطط المنصور ، وفى سنة ٣٨٦ أمر أن يخصّ بتسويده من بين سائر الناس كافة فى المخاطبات وأن يرفع ذلك عن سائر أهل الدولة مع الاقتصاد فى مراتب الأدعية وأنفذ الكتب بذلك وجرى العمل عليه بقية حياته وخوطب من هذا الوقت « بالملك الكريم » ، وقدصار إذن ملكاً كريماً ولكن لم يصبح « خليفة » والخلافة أمله المرتجى وبغيته المشتهاة ، ولقد كان المنصور سيد الموقف ورجل الساعة وقد أصبحت غزواته المتوالية جديرة بأن تسلكه بين أشهر رجال الأندلس فلماذا يحجم عن المبادرة إلى تنفيذ خطته وإحداث الانقلاب الذى يحقق بغيته ؟ لم يكن الخليفة هشام الثانى هو العقبة القائمة فى سبيله لأنه كان أهون خطراً وأذل شأناً من ذلك ، وكان فى ذلك الوقت فى ربيع العمر وميعة الصبا ولكنه لم يظهر ما يدل على أقل رغبة فى الاستقلال والاضطلاع بأعباء الحكم ولم يحاول صدع قيوده والإفلات من العزلة التى فرضها عليه المنصور ، وكان مشغولاً بالعبادات ومجالسة

النساء ومحادثة الإماء ، وضاق أفق تفكيره وغام عقله واستغلّ باعة الآثار المزيّفة قبوله للترّهات وإيمانه بالخرافات فكانوا يعرضون عليه ألواحاً من الخشب منسوبة إلى سفينة نوح وحوافر منسوبة إلى حمار العزيز ويقدمون له أخفافاً ويدخلون فى روعه أنها لناقة صالح إلى سبحات ومصليات منسوبة لجماعة من العبّاد والزهّاد ولم يسترب فى تعددها ولا فكّر فى مقدار ما يحتاج إليه الحيوان منها ، وبذل فى ذلك من الأموال ما يزن أضعاف أوزانها وكان يحرص على اقتنائها لاكتساب البركات والتماس الحسنات .

ولم يكن المنصور يخشى أمراء بنى أمية فقد قتل من يخشى منه من بنى أمية خوفاً أن يثوروا به ، وكان يظهر أنه يفعل ذلك شفقة على هشام المؤيد حتى أفنى من يصلح منهم للولاية ثم مزّق باقيهم فى البلاد وأدخلهم زوايا الخمول ولم يكن يخشى الجيش فقد كان معظمه من البربر ومسيحيي الشمال والصقالبة وهم صنائعه وغرس يده وهو المتفضل عليهم وولى نعمتهم .

كان يخشى أمراً واحداً وهو ثورة الرأى العام وغضبة الشعب ، وكان المنصور يعلم أن أفراداً أقلاء من سكان العاصمة قد رأوا الخليفة هشاماً ، فقد حجر المنصور هشاماً بحيث لم يره أحد منذ ولى الحجابة ، وربما أركبه فى بعض الأحايين وجعل عليه برنساً وعلى جواريه مثل ذلك فلا يعرف منهن ويأمر من ينحّى الناس من طريقه حتى ينتهى هشام إلى موضع تنزّهه ثم يعود وكان المنصور إذا سافر وكل بالمؤيد من يفعل به ذلك ، ولكن هشاماً برغم

ذلك كان محبوباً من الشعب لأنه ابن الحكم الثانى الخليفة العادل الصالح وحفيد عبد الرحمن الثالث الخليفة العظيم. ثم هو قبل كل شىء الحاكم الشرعى للبلاد وسليل الأسرة الأموية !

وكان احترام صفة الخليفة الشرعية بعيد الأعراق فى قلب الأندلسيين ، وكان فى نفوس الشعب أقوى منه فى نفوس الأشراف والأعيان ، وكان أكثر الأشراف من أصل عربى وكانوا يستطيعون أن يقنعوا أنفسهم بأن تغيير الأسرة الحاكمة من الحين إلى الحين قد يكون نافعاً لهم ، ولكن مثل هذه الفكرة كان يمقتها الشعب المطبوع على الولاء والتأثر بذكريات الماضى المجيد ، وكان حب الأمويين ممتزجاً فى النفوس بالعواطف الدينية والتعلق بالماضى والاستمساك بالتقاليد ، ولقد اختلب المنصور ألبابهم بفتوحه الكثيرة وملأ الأندلس غنائم وسبياً وأصبحت الناس فى عيش راغد ورخاء مستفيض، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينسوا له حجره على الخليفة وكانوا متأهّبين للثورة الجائحة لو اجترأ الوزير على تقلّد الخلافة و إسقاط الأسرة الأموية .

ولم يكن المنصور صاحب رِسْلة وتهاون ، ولكنه كان أحدّ ذهناً وأدق نظراً من أن يجهل ميول الشعب الحقيقية ، وكان سياسياً عملياً يبنى سياسته على الواقع و ينسج خيوطها منه وقد استطاع بالتزامه هذه السياسة ألا يترك لأعدائه ثلمة يقتحمون عليه منها ، وكان يعلّل نفسه بأن ميول الشعب ستتغير

على مرّ الأيام وينسى أمر الخليفة ويندثر ذكره وتتعلّق به الأنظار ويناط به الرجاء فتتحقق أحلام صباه كاملة غير منقوصة ويصل إلى غايته دون أن يحدث ذلك رجّة مدوّية ، وكان خيراً للمنصور أن أخّر تحقيق أمنيته فسرعان ما أدرك أن قوته برغم ما بذل من جهود وقام به من فتوح لا تزال فى مهابّ الرياح فقد تصدت لمناوأته امرأة ونصبت لحربه وكادت تهدم له ما بنى وتنقض ما أبرم ، وهذه المرأة هى السيدة صبح أم الخليفة هشام .

وقد أحبّته هذه السيدة وتدلّهت به ومهّدت له السبيل وأعانته بجاهها ونفوذها وأفاءت عليه ظلّها ، ولكنه شعر أخيرا بأنه فى غير حاجة إليها ، وقد ساءها أن يتنكر لها ويهمل أمرها بعد أن قوى نفوذه وترامت سلطته وثبتت مكانته ، وكبر عليها أن يتخلّى عنها بعد أن ولّى شبابها وترحّلت نضارته وزايلتها أحلامه وبهجته ، ولقد أحاطها فى الماضى من شامل رعايته وفرط عنايته بجوّ سحرىّ عبق وهبّت على روحها من ناحيته نسمات منعشة ورياح أرجة ، أما الآن فقد ترك فى نفسها صدعاً لا يشعب وجرحاً لا يندمل ، ولقد كان همّه أن يترضّى غرورها ويتملّق نزواتها وطالما أشادت من أجل ذلك بسجاياه الموموقة وخلاله الباهرة وكفاياته الممتازة ، وقد غمر قلبها حبه وغطّى على فكرها وتغلّب فى نفسها على حنان الأمومة فضحّت من أجله بمستقبل ولدها الوحيد ومعقد أملها ومناط فخرها ، وقد ظلّ المنصور حيناً من الدهر يبالغ فى إرضائها ويتجنّب سخطها ويستوحى سماءها حتى خدعها عن حقيقته فخالت أن لها فى

نفسه مكانة لا تبليها الأيام ولا تخترمها الحوادث ، ولكنه الآن لا يعيرها اهتماماً ولا يظهر لها رعاية ، وكان هو كذلك قد تقضّى شبابه وعلت سنّه وثقل عليه عبء السنين وزاده صرامة تقلب الحوادث وأعاصير الحروب، ولعله فقد ما كانت تعهد فيه من طلاقة البشر ولين الكلام وتعاوره الهم الملازم لتحمل التبعات الجسيمة والنهوض بالأعباء المبهظة ، ولكن هل تستكين وتقبل الهزيمة صاغرة ؟ لقد كان فى طبعها عرام وشدة وفى عواطفها عنف وقوة وهى من سلالة أقوام أشدّاء جبليين، وقد أحبّت بكل جوارحها ومثل هذا الحبّ العاصف لا تفتر قوّته ولا تنطفئ جذوته وإنما قد يستحيل عداوة صمّاء وحقداً متلظّياً فلا بدّ من معركة هائلة بين هذه المرأة القادمة من ثنيّات الشمال وهذا الرجل المقبل من هضبات الجنوب، ولقد قصم هذا الرجل أعداءه جميعهم وعصبهم عصب السلمة ومحقهم محقاً فهل تراه يثبت لكيد هذه المرأة العظيم ويلزمها حدودها ويتغلّب عليها ؟ وماذا تستطيع أن تصنعه هذه السيدة برجل لا تكبو قريحته ولا يمترج عليه تدبير ولا تضيق به خطّة ولكل عقدة عنده حلّها المناسب ولكل معركة سلاحها المدّخر وعتادها المهيّأ ؟

حاولت السيدة صبح أن تستنهض عزيمة ابنها وأن تبصّره بواجباته وأغرته بتفكيك القيود التى قيّده بها الوزير ، وقد استطاعت أن تشعل خابى الحماسة فى هذه النفس الخائرة المستضعفة، وأدرك المنصور ذلك فقد أخذ الخليفة يعامله بشىء من الفتور ، بل اجترأ ووجّه إليه بعض اللوم ، وأراد الوزير أن

يهدئ العاصفة ويطفئ الثائرة ففرّق جماعة من حاشية قصر الخليفة ومزّقهم ولم يدع فى خدمة القصر إلا من استشعر له هيبة ورهبة، وأذكى مع ذلك العيون عليهم حتى ملك نفوسهم وأمِن شرّهم ، ولكن ذلك لم ينل من إرادة السيدة صبح القوية فقد كانت خصماً جديراً بمنازلة المنصور ، وأوحت إلى أعوانها أن يذيعوا بين الناس أن الوقت قد حان ليباشر الخليفة السلطة بنفسه ويضع زمام الأمور فى يده وأنه يعتمد على ولاء الشعب لإنقاذه من سجنه وإنصافه من ظالمه ، وجازت رسلها البحر إلى العدوة ، وفى الوقت الذى حدثت فيه قلاقل فى العاصمة رفع زيرى بن عطية حاكم المغرب الأقصى علم الثورة لحجر المنصور على الخليفة هشام واستئثاره بالحكم دونه .

وزيرى بن عطية المَغْراوى الخزرى أول ملوك زناتة بالمغرب ، وقد قام منذ سنة ٣٦٨ بدعوة الخليفة هشام وحاجبه المنصور وذلك بعد انقطاع أيام الأدارسة ، وملك زيرى مدينة فاس واستوطنها وصيّرها دار ملكه فى سنة ٣٧٧ واستقام له أمر المغرب وعلا قدره ، وفى سنة ٣٨٢ استدعاه المنصور إلى قرطبة فاستخلف على المغرب ولده وحمل بين يديه هدية عظيمة ، فأكرمه المنصور وأنزله بقصر جعفر الحاجب وتوسّع له فى الإكرام ولقّبه باسم الوزراء وأعطاه أموالاً جسيمة وخلعاً نفيسة وصرفه إلى عمله وجدّد له عهده على المغرب وعلى جميع ما غلب عليه ، فجاز البحر ودخل مدينة طنجة فلما استقر بساحلها وضع يده على رأسه وقال : « الآن علمت أنك لى » واستقلّ ما وصل إليه

من المنصور واستقبح اسم الوزارة ، فلما خاطبه بعض رجاله بلقب الوزارة نهاه عنه وقال « ويحك لست وزيراً وإني لأمير ابن أمير، واعجب من ابن أبي عامر ومخرقته وسماعك بالمعيدى خير من أن تراه ، ولو كان بالأندلس رجل ما تركه على حاله وإن لنا ليوماً معه » وبلغت كلمته المنصور فصمّ عليها أذنه وزاد في اصطناعه، ولو صدر مثل هذا الكلام من غير زيرى لكان جزاء قائله القتل الوحيّ .

ولما استثارته السيدة صبح ولاذت به في محنتها بسط لسانه في المنصور وأكثر من انتقاصه والتعريض به فقطع المنصور عنه ما كان يجريه عليه فعزم زيرى على قتاله وقطع ذكره من الخطبة وترك الدعاء له واقتصر على ذكر هشام المؤيّد فأنفذ إليه المنصور واضحاً الفتى لقتاله .

وكانت السيدة صبح تعلم أن زيرى هو الرجل الوحيد الذى يقيم له المنصور وزناً ويحذر جانبه ويحرص على تقريبه واصطناعه وأن هذا الرجل الناشئ في الخلوات الفيح كان يمقت المنصور لطغيانه وتفرّده بالسلطان ، وكانت تعرف في الوقت نفسه شدة شره البربر وحبّهم للمال ، ومثل زيرى لا يحدث حدثاً ولا يقوم بحركة إلا إذا دفع له الأجر سلفاً فكيف ترسل إليه المال اللازم ؟

فكّرت في الموضوع وهداها تفكيرها إلى حيلة بارعة لإرسال المال إلى حليفها الجديد ، وكان بالقصر أموال مختزنة تبلغ ستة ملايين قطعة من الذهب ، فاستولت السيدة صبح على ثمانين الف قطعة منها وأمرت بوضعها في مائة كوز

مختومة ملأتها ذهباً وفضة وموّهت على ذلك كله بالمربى والشهد وغير ذلك من الأصباغ الرقيقة وكتبت على رؤوس الكيزان أسماء ذلك ومرّت بصاحب المدينة فحسبها كما كتب عليها وعهدت بها إلى خادم صقلبي لنقلها خارج المدينة إلى جهة تعلمها، ونجحت الحيلة وعرف المنصور ذلك والنقود فى طريقها إلى المغرب الأقصى ، واهمّ الأمر المنصور وأخافه وأزعجه وأثار ثائره وأقام قيامته ، وقد استخلص من الظروف التى أحاطت بالحادث أن الخليفة كان على علم بهذا التدبير فالموقف إذن حرج وفى حاجة إلى العلاج السريع ، فاستدعى المنصور على الفور الوزراء والحكام والفقهاء وأعيان المدينة ورجال الحاشية وأعلمهم أن الخليفة مشغول عن حفظ الأموال بانهماكه فى العبادة وأن فى تضييعها على المسلمين وعلى الدولة أعظم الآفة وأشار بنقلها إلى حيث يؤمن عليها، فرأت الجماعة أن كون الأموال بيد المنصور أسلم وأنه على حفظها أقدر وأقوم، ونالت المنصور فى إثر ذلك علة طاولته فأرجف به خصومه وكشفوا وجوههم عند استحكام الإرجاف به وبذلوا جهدهم سراً وجهراً للقيام عليه وكانت السيدة صبح هى المدبّرة لهذه الحركة الهادمة ولكن القائمين بها لم تكن لهم خبرة ناضجة ولا دراية واسعة ولم تكن هناك شخصية قوية لتتزعم الحركة وتوجّه القائمين بها ، واشتدّ ذلك على المنصور فتقدّم إلى ابنه عبد الملك بأن يقود ألفى فارس من المصطنعين للدولة والغلمان العامريين وأن يبيتوا معه بالزاهرة لإنفاذ أمره بحمل الأموال إليه ، وأحكم الأمر مع الوزراء والفقهاء فركب ذلك الجيش بين يديه

(فى جمادى الأولى سـنة ٣٨٦) فأتى قصر الخلافة بقرطبة وأذن لمن وافى من الفقهاء والوزراء بالوصول إلى مجلسه وشافههم بهذا الأمر ، فاعترف الملأ بفضل أبيه المنصور فقال لهم عبـد الملك « إن قوما ممن يتصل بأسباب الخليفة هشام يؤثر الفتنة ويكره الدعة » فأنـكرت الجماعة ذلك ، وأحبّ عبد الملك الوصول بهم إلى مجلس هشام ليشافهوه بهذه الـكروب العظام فـكره هشام ذلك وامتنع منه وتبرّأ من أعداء ابن أبى عامر وانصدع الجمع على انتقال المـال فنقل على ثلاثة أيام حتى استنفد جميع ما ظهر عليه من بيت المال وتعذّر نقل ما كان بجوف القصر من بيت مال الخاصة ودافع عنه أهل الدار لقيام السيدة أم هشام دونه ، وقد أظهرت فى ذلك الموقف صرامة وعناداً ورمت ابن أبى عامر وولده بكل عظيمة وعبد الملك يومئذ سا كت يتجرّع غصصه لا يرد بكلمة ، وبلغ عبد الملك رغبته وانـكفأ إلى أبيه بالزاهرة بعد أن ثقف القصر ، فسكن جأش المنصور باحراز تلك الأموال ، وزعموا أن جملة ما حمل خمسة آلاف الف دينار دراهم قاسمية، ومن الذهب سبعمائة الف جعفرية ، ثم استبلّ المنصور من علته ووصل إلى مجلس الخليفـة هشام مع ابنه عبد الملك وسائر عظماء الدولة فخلا هشام مع ابن أبى عامر واعترف له بالفضل والاضطلاع بالدولة والغناء فى حفظ قواعدها فخرست الألسنة، وأذاع المنصور اعتراف الخليفة وتفويضه إياه فى جميع الأنحاء وبمختلف الطرق وانتفى أمل المحرضين على الثورة فمن ذا الذى يجترئ الآن على تحرير أسير يجفل من الحرية ويفرق من احتمال تبعة تصرفه ويؤثر أن يعيش مطموس الشخصية خفى الشأن ؟

وعلم المنصور ما فى نفوس الناس لظهور هشام ورؤيتهم له إذ كان منهم من لم يره قط فأبرزه للناس وركب هشام ركبته المشهورة وقد برزوا له فى خلق عظيم وازدحمت شوارع قرطبة وتقدم هشام على فرس مطهّم فى لبوس فاخر وهيئة سرية معمماً على الطويلة سادلاً للذؤابة، والقضيب — وهو زى الخلافة — فى يده ، وإلى جانبه المنصور يسايره وقدّامه الحاجب عبد الملك راجلاً يمشى ويسير الجيش أمامه ومن المواكب وطوائف الجند والغلمان والفتيان القصريين والعامريين ما جعل الناس يعجبون من كثرتهم ، وكان النظام تامًّا ومرّ الموكب على خير ما يكون ، وانتصر المنصور وهزمت السيدة صبح وسلّمت أمرها للأقدار ، ولم يبق لها الآن وقد تحطّم قلبها وهيض جناحها ونسل ريشها واستذلت كبرياؤها إلا أن تلتمس فى الدين وأعمال الخير والبر السلوى عن الماضى ونسيانه والاستعاضة عن آمالها الضائعة وأحلامها المطوية .

السنوات الأخيرة

كانت تصل المنصور القوارص التى يرميه بها زعيم زِنَاتَة زيرى بن عطية فيغض عنها الطرف ، ويتصنّع الحلم ، ويعزوها إلى الصراحة التى نشأ عليها زيرى وقلّة تحفظة ، وكان يعلم أن زيرى على سذاجته الظاهرة ليس بالخصم الذى يستهان بقوّته ويسهل التغلّب عليه وهزيمته ، ويلوح أن المنصور على صدق فراسته وقوّة حدسه لم يدرك ما كان يخفيه زيرى من الدهاء والطموح وراء بساطته العاديّة ، وقد تحالف زيرى مع خصوم المنصور ، وكان التدبير المرسوم هو أن تحدث القلاقل والاضطرابات فى العاصمة فى الوقت الذى يثور فيه زيرى مطالباً برد حقوق الخليفة وإعادة سلطانه ، ولذا رأى المنصور أن زمن المفاوضة والتفاهم والاسترضاء والملاينة والإغضاء قد تولّى فأعلن أن زيرى طريده وطلبته وأمر مولاه واضحاً بمهاجمة زيرى ومنازلته ، واعترى موقف زيرى شىء من الضعف فقد أصبح لا يستطيع الاعتماد على تأييد الخليفة هشام ولا أموال السيدة صبح .

وكان المنظور ألاّ يقوم المنصور بغزوة حتى تنتهى حرب العدوة ، ولكنه

لم يتردد فى الاستعداد للقيام بأعظم غزواته وأروعها وأسيرها ذكراً ، وقد أراد أن يعرف خصومه وأصدقاؤه أنه يستطيع أن يحارب فى جبهتين فى وقت واحد وينتصر ، ولذا أعدّ عدّته فى عناية ودقة وافيتين ، وسما إلى الاستيلاء على مدينة شَنْت ياقب قاصية غليسية وأعظم مشاهد النصارى الكائنة ببلاد الأندلس وما يتصل بها من الأرض الكبيرة ، وكانت كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عند المسلمين - كما يقول ابن عذارى - يحلفون بها ويحجّون إليها من أقصى بلاد رومة وما وراءها ، ويزعمون أن القبر المزور بها قبر يعقوب ابن زَبَدَة الحوارى ، وكان أخص الحواريين بالمسيح وهم يسمّونه أخاه للزومه إياه ، وكان أسقفاً ببيت المقدس فجعل يستقرى الأرضين داعياً لمن فيها فجاز الأندلس حتى انتهى إلى هذه القاصية ثم عاد إلى أرض الشام فقتل بها وله من العمر مائة وعشرون سنة شمسية ، واحتمل أصحابه رمّته فدفنوها بهذه الكنيسة التى كانت أقصى أثره ، ولم يكن أحد يهتدى إلى مكانها إلى أن كشفها المطران تيودمير أسقف إريا فى عهد شارلمان ، فقد جاءه بعض الناس وأخبروه أنهم شاهدوا فى الليل أضواء عجيبة فى الغابة وسمعوا موسيقى سماوية ساحرة ، فخطر بباله أنها إحدى المعجزات الخارقة ، وصام ثلاثة أيام ليعدّ نفسه لمشاهدتها ودخل الغابة بعد أن صلّى فكشف هناك قبراً مشيّداً بالرخام وأوحى إليه أن هذا القبر يضم رفات الرسول يعقوب ، ولم يكن من الميسور مناقشة هذا الزعم فى تلك العصور الخالية التى غلبت عليها النزعة الدينية

والاعتقاد الراسخ ، وقد أيّد البابا نفسه هذا الزعم فليس من سبيل إلى إنكاره أو الشكّ فيه ، وأصبح لهذا المزار شهرة عظيمة ومكانة سامية فى النفوس ، وكثر قصّاده من شتى الأنحاء وكان احترام هذا المزار عظيماً لكثرة ما أشيع حوله من القصص وما نسج من الخرافات ، وكان يشاع أن الرسول المدفون يظهر على جواد أغر يقود كتيبة من فرسان المسيحيين مبشراً بانتصار المسيحية وهزيمة الإسلام ، وأثّرت هذه الأسطورة تأثيرها وقبلها الناس .

ولم يطمع أحد من ملوك المسلمين فى قصدها والوصول إليها لصعوبة مدخلها وخشونة مكانها وبعد شقتها ، ولكن المنصور كان يطمح إلى نيل ما أعجز غيره وعزّ على سواه ، وطالما ردّد الأسبانيون أن سلامة تلك المدينة من الغزو راجع إلى احتمائها بجثمان القديس الطاهر لا إلى العقبات الطبيعية القائمة فى طريق الفاتح ، فلو هوجمت وهدّدت لحدثت المعجزة ووقع ما لا ينتظر . وقد أراد المنصور أن يبطل هذا التخرص ، ويدحض تلك الأباطيل الملفقة ويثبت عجز هذا القديس الدفين عن حماية مدينته ووقاية ضريحه ، ووضع المنصور خطة محكمة للغزو واستعدّ لكل احتمال فخرج من قرطبة سنة ٣٨٧ على رأس جيشه ودخل على مدينة قورية وتقدّم منها إلى مدينة بازو ووافاه بها عدد عظيم من القوامس المتمسكين بطاعته فى رجالهم وعلى أتم احتفالهم ، وكان المنصور قد تقدّم فى إنشاء أسطول كبير فى الموضع المعروف بقصر أبى دانس من ساحل غرب الأندلس ، وجهّزه برجاله البحريين وصنوف المترجّلين ، وحمل الأقوات والأطعمة والعدد والأسلحة إلى

أن خرج بمدينة برتقال Oporto الواقعة على مصب نهر دويرة وعقد هناك من الأسطول جسراً عبر عليه الجيش ، ولما كان الإقليم الواقع بين نهر دويرة ونهر منهو تابعاً للقوامس الموالين للمنصور فقد تقدّم فيه جيش المنصور دون أن يلقى مقاومة أو تعترضه عقبة سوى العقبات الطبيعيـة التى كان يذللها ، وتوسّع الجند فى التزوّد من الميرة ، وصادفهم فى الطريق جبل أشم فشقّ رجال المنصور فوقه طريقاً مرّ منه الجيش ، و بعد عبور نهر المنهو دخل الجيش بلاد الأعداء فاشتدت يقظة المنصور وصار يتقدم فى حذر واحتياط ، وكان فى الجيش بعض المرتزقة من مملـكة ليون ولم يكن ضميرهم مطمئناً إلى الغرض الذى قصده المنصور بهذه الغزوة ، وآلمهم أن يشتركوا فى حملة قد تسفر عن انتهاك حرمة ضريح القديس الذى يحمى بلادهم ، وهمّوا بتدبير يكيدون به للجيش و يفسدون به أمر الحملة ، ولـكن يقظة المنصور فوّتت عليهم هذا الغرض ، ففى ليلة شديدة البرد والريح والمطر دعا بأحد الفرسان وقال له « انهض الآن إلى فج طيالس وأقم فيـه فأول خاطر يخطر عليك سقه إلىّ » فنهض الفارس و بقى فى الفج فى البرد والريح والمطر واقفاً على فرسه ، فلما لاحت أضواء الفجر أبصر شيخاً هرماً على حمار له ومعه آلة الحطب فأمره بالوقوف ودنا منه وقال له : « إلى أين تريد يا شيخ فقال وراء الحطب » فقال الفارس فى نفسه هذا شيخ مسكين نهض إلى الجبل يسوق حطباً فماذا عسى أن يريد المنصور منه ؟ فتركه ولما ابتعد قليلا فـكّر الفـارس فى قول المنصور ، وخاف سطوته ، فنهض إلى الشيخ وقال له

« ارجع إلى مولانا المنصور » فقال الشيخ « وماذا عسى أن يريد المنصور من شيخ مثلى ؟ سألتك بالله أن تتركنى أذهب لطلب معيشتى » فقال له الفارس « لا أفعل » وقدم به على المنصور ومثّله بين يديه وهو جالس لم ينم ليلته تلك ، فلما رآه المنصور قال للصقالبة « فتّشوه » ففتّشوه فلم يجدوا معه شيئاً فقال « فتّشوا برذعة حماره » ، فوجدوا داخلها كتاباً من المرتزقة من نصارى ليون الذين كانوا يخدمون عنده إلى أصحابهم من النصارى ليكمنوا فى إحدى النواحى المرطومة ويضربوا ويقتلوا ، فلما انبلج الصبح أمر بإخراجهم وضربت أعناقهم وضربت رقبة الشيخ معهم ، وقضى هذا الإجراء السريع الحاسم على الاسترسال فى الخيانة .

واستأنف الجيش تقدمه يريد شنت ياقب وانبسط المسلمون فى بسائط عريضة وأرضين أريضة وانتهت مغيرتهم إلى دير قشطان وبسيط بلبنوط وفتحوا حصن شنت بلاية وغنموه وعبروا سباحة إلى جزيرة من البحر المحيط لجأ إليها خلق عظيم من أهل تلك النواحى فسبوا من فيها ممن لجأ إليها وانتهى العسكر إلى جبل موراسيه المتصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط فتخللوا أقطاره ، واستخرجوا من كان فيه ، وحازوا غنائمه ، ثم أجاز المسلمون بعد هذا خليج لورقى فى معبرين أرشد الأدلاّء إليهما ، ثم نهر أيْلة ، ثم أفضوا إلى بسائط واسعة العمارة كثيرة الفائدة ، ثم انتهوا إلى موضع من مشاهد ياقب صاحب القبر تلو مشهد قبره عند النصارى فى الفضل يقصد له نسّاكهم من

أقاصى البلاد فغادره المسلمون قاعاً ، وكان النزول بعده على مدينة شنت ياقب البائسة وذلك يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شعبان سنة ٣٨٧ ، فوجدها المسلمون خالية من أهلها ، فحاز المسلمون غنائمها وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها وعفّوا آثارها ، ووكل المنصور بقبر ياقب من يحفظه ويدفع الأذى عنه ولم يجد المنصور بشنت ياقب إلا شيخاً من الرهبان جالساً على القبر فسأله عن مقامه فقال « أونس يعقوب » فأمر بالكفّ عنه ، وكانت مصانعها بديعة محكمة فغودرت هشيماً كأن لم تغن بالأمس ، وانتسفت بعوثه بعد ذلك سائر البسائط وانتهت الجيوش إلى مدينة شنت ما نكش منقطع هذا الصقع على البحر المحيط وهى لم يبلغها قبلهم مسلم فلم يكن بعدها للخيل مجال ، وانكفأ المنصور عن شنت ياقب وقد بلغ غاية لم يبلغها أحد قبله من حكام الأندلس ، وكان يعيث ويفسد فى النواحى التابعة لبرمند ملك ليون ، ولما دخل بلاد القوامس المعاهدين أمر بالكفّ عنها ومرّ مجتازاً حتى خرج إلى حصن مليقة وأجاز هناك القوامس على أقدارهم وكساهم وكسا رجالهم وصرفهم إلى بلادهم ، وكتب من مليقة بالفتح إلى الخليفة ، وكان مبلغ من أكساه المنصور فى غزاته هذه من ملوك النصارى ومن حسن غناؤه من المسلمين ألفين ومائتين وخمسا وثمانين شُقّة من صنوف الخز الطرازى ، وواحداً وعشرين كساء من صوف البحر ، وكسائين عنبريين ، وأحدَ عشرَ سَقْلَاطُوناً وخمسة عشر مُرَيّشاً ، وسبعة أنماط ديباج ، وثوبى ديباج رومى ، وفروى فَنَكٍ ، ووافى جميع العسكر

قافلاً إلى قرطبة سالماً غانماً ، وعظمت النعمة على المسلمين ، ودخل المنصور قرطبة فى احتفال فخم ، ووراءه أسرى الأسبانيين يحملون على عواتقهم أبواب مدينة شنت ياقب وأجراس كنيستها .

أما حرب المغرب الأقصى فقد سارت فى بادئ الأمر سيراً حسناً فقد انتصر واضح على زيرى انتصارات باهرة واستولى على مدينة أصيلة ونيقور وفاجأ زيرى فى معسكره ليلاً وأوقعه فى كبد وأثخن فى رجاله ، وتنكّر له الحظ بعد ذلك فهزمه زيرى واضطره إلى دخول طنجه والتحصّن بها ، فأرسل إلى المنصور يلتمس المدد ، فأردفه المنصور بولده عبد الملك وجاء المنصور إلى الجزيرة الخضراء يمدّهما بالقواد والأجناد ، وسار عبد الملك من طنجة إلى زيرى ودارت بينهما حرب شديدة ثم انهزم زيرى ومن معه ونجا مثخناً بالجراح ومات بعد ذلك من جراحه فى سنة ٣٩٢ ، واستقامت طاعة المغرب للمنصور وقفل عبد الملك إلى قرطبة ، واستعمل مولاه واضحاً على المغرب ، وعقد لملوك زِنَاتَة على ممالك المغرب وأعماله من سِجلماسَة وغيرها .

وقد بلغ المنصور ذروة المجد ولم يحقق أمنيّته الكبرى ، وقد كانت حياته الآن موشكة على النهاية فقد أخذ الضعف يدبّ فى بنيته الوثيقة ، وبدأت تثقل عليه علة خفيّة حار فى تشخيصها الأطباء ، ولم يعرفوا لها دواءً ناجعاً أو علاجاً شافياً ، وقد ظلّ المنصور يتحيّن الفرص ويترصّد المناسبات لنيل أمنيته، فذهبت آماله أدراج الرياح ، وعيل صبره ، وتكاثرت همومه ، وأخذ مستقبل

الدولة التى حاطها برعايته يشغل باله ، و يقلق خاطره ، ولقد أضعف الخلافة باغتصابه لسلطان الخليفة وأذهب هيبتها ولم يستطع برغم ذلك أن ينيل أولاده حقاً باقياً ، ولم يكن أحد يقدر هـذه الحقيقة المؤلمة مثله ، ولقد كانت شغله الشاغل ، وهمه المقعد المقيم وقد كان شبحها يطالعه فى غزواته الظافرة ، ومواقفه الباهرة ، فيغيّض من بشره و ينتقص من سروره ، ولقد هدّ ركن الخلافة ، وجعلها مطيّة للطامعين ، دون أن يجنى ثمرة باقية مؤكّدة فلأية غاية إذن ضحّى بما ضحّى به و بذل ما بذل وأنفق ما أنفق من جهد وأراق ما أراق من دماء ؟

ومن يدرى فربما أخذت تلاحقه فى أحلامه وغدواته وروحاته أشباح هؤلاء الرجال الذين غدر بهم فى سبيل مطامعه !

خرج يوماً للنزهة بمركب فى النهر ومعه نفر من أصحابه بين يدى قصر الزاهرة فأخذ يصعّد بصره و يصوّبه فى قصوره بالزاهرة ، و يتأمّل محاسنها ، و ينظر إلى مياهها المطّردة ، و ينصت لأطيارها المغرّدة ، وملأ عينه من جمالها وحسنها ، والتفت من اليمين إلى الشمال ، فتجهّم وجهه ، وانحدرت دموعه ، وقال « واهاً لك يا زاهرة الحسن لقد جمل مرآك وراق منظرك فليت شعرى من المدبر المشؤوم الذى يكون خرابك على يديه من قريب ؟ »

فاستعظم أصحابه ما كان منه وحسبوا أن النبيذ عمل فيه ، وأفرط أحدهم فى الاستنكار حتى قال له « ما هذا الكلام الذى ما سمعناه من مولانا قط ؟ وما هذا الفكر الردىء الذى لا يليق بمثله شغل البال به ؟ »

فقال المنصور « والله لترون ما قلت ، وكأنى بمحاسن الزاهرة قد محيت ورسومها قد غيّرت ، و بمبانيها قد هدمت ونُحِّيت ، و بخزائنها قد نهبت ، و بساحاتها قد أضرمت بنار الفتنة وألهبت »

وقد صحّت نبوءة المنصور بعد أعوام قلائل وكان ذلك نتيجة محتومة لسياسته التى أضعفت احترام مبدأ « السلطة » ولم يغب ذلك عن تقدير المنصور بل كان مصدر همّه وقلقه فى سنواته الأخيرة .

وفى سنة ٣٩٢ خرج المنصور إلى الغزوة الأخيرة من غزواته ، ولم تكن طمحات هذا السياسى الحصيف مقصورة على الأمجاد الأرضية بل اشتملت على السعى لتأثيل مكانته في السماء والعالم الآخر ، ولم يقصّر فى الاحتياط للقاء ربه جرياً على عادته فى التأهب لكل شىء ، وكان يسأل الله تعالى أن يتوفّاه فى ساحة الوغى وميدان الجهاد ، وكان على ثقة من إجابة دعوته ، وقد اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الغبار فى غزواته ، ومواطن جهاده ، فكان الخدم يأخذونه عنه بالمنديل فى كل منزل من منازله حتى اجتمع له منه صرّة ضخمة وأوصى بتصييره فى حنوطه عند موته ، وكان يحمله حيثما صار مع أكفانه توقعاً لحلول منيّته ، وكان قد اتّخذ الأكفان من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة من أبيه وغزل بناته ، وكان المنصور متنزّهاً عن كل ما يفتتن به الملوك سوى الخمر وقد أقلع عنها قبل موته بسنتين وخطّ بيده مصحفاً كان يحمله معه فى أسفاره يدرس فيه و يتبرك به .

واقتحم أرض قشتالة وخرّب صومعة القديس إمليان ومرضه يخف وقتاً ويثقل وقتاً ، وكانت الغزوة ظافرة موفّقة كسائر غزواته ، وشعر فى عودته باشتداد المرض ، ولم تتفق آراء الأطبّاء على طريقة العلاج، ولذا أصرّ المنصور على رفض تناول ما يقدّم له من الدواء ، واقتنع بأن هذا هو مرضه الأخير ، وقويت عليه العلّة حتى أصبح لا يستطيع أن يمتطى صهوة جواده فاتّخذ له سرير خشب وسوّى مهاده بحيث يمكنه الاضطجاع عليه متى خارت قواه ، وجعلت عليه ستارة ، وكان يحمل على أعناق الرجال وسجفه منسدل عليه ، وعساكره تحفّ به ، وتطيع أمره ، وكان يقول : « إن زمامى يشتمل على عشرين ألف مرتزق ما فيهم أسوأ حالة منى ، ووددت أن أقال زلتى وأنا كبعض هؤلاء السودان الحاملين لسريرى » — وكان يحمل سريره السودان الرقّاصة للين مشيتهم — ولعله كان يعنى من حضر معه تلك الغزاة ، وإلا فعساكر الأندلس فى ذلك الزمان أكثر من ذلك العدد ، وقطع أربعة عشر يوما حتى وصل إلى مدينة سالم ، وأيقن هنالك بالموت ، وشغل ذهنه يومئذ بقرطبة ، فاستدعى ابنه عبد الملك وأمره بالتوجّه إلى قرطبة لشدّها وضبطها فى طائفة من ثقات غلمانه بعد أن أوصاهم كلهم أشتاتًا وجماعة، ثم خلا بولده عبد الملك يوصيه ويودّعه ويقبض على يده وكلما ذهب عنه استردّه مستدركاً بوصيته وعبد الملك يبكى فينكر ذلك عليه ويقول : « هذا أول العجز والفشل » وكان مما قاله له وأوصاه به « يابنىّ لست تجد أنصح لك ولا أشفق عليك منى فلا

تعدين وصيتى فقد جردت لك رأيي ورويتى على حين اجتماع من ذهنى فاجعلها مثالاً بين يديك ، وقد وطّأت لك مهاد الدولة وعدلت لك طبقات أوليائها وعايرت لك بين دخل المملكة وخرجها، واستكثرت لك من أطعمتها وعددها وخلّفت لك جباية تزيد على ما ينوبك لجيشك ونفقتك ، فلا تطلق يدك فى الإنفاق ، ولا تقض لظلمة العمال فيختلّ أمرك سريعًا ، فكل سرف راجع إلى اختلال لا محالة ، فاقتصد فى أمرك جهدك ، واستثبت فيما يرفع أهل السعاية إليك ، والرعية قد استقصيت لك تقويمها وأعظم مناها أن تأمن البادرة وتسكن إلى لين الجنبة ، وصاحب القصر قد علمت مذهبه وأنه لا يأتيك من قبله شىء تكرهه ، والآفة ممن يتولاه ويلتمس الوثوب باسمه فلا تنم عن هذه الطائفة جملة ، ولا ترفع عنها سوء الظن ، وعاجل بها من خفته على أقل تهمة مع قيامك بحق صاحب القصر على أتم وجه ، فليس لك ولا لأوليائك شىء يقيكم الحنث فى يمين بيعته إلا ما تقيمه لوليها من هذه النفقة ، فأما الانفراد بالتدبير دونه مع ما بلوته من جهله وعجزه عنه فإنى أرجو أنى وإياك منه فى سعة ما تمسّكنا بالكتاب والسنّة ، والمال المخزون عند والدتك هو ذخيرة مملكتك وعدّة لحاجة تنزل بك فأقمه مقام الجارحة من جوارحك التى لا تبذلها إلا عند الشدّة تخاف منها على سائر جسدك ، ومادّة الخراج غير منقطعة عنك بالحالة المعتدلة ، وأخوك عبد الرحمن قد صيّرت إليه فى حياتى

ما رجوت أنى قد خرجت له فيه عن حقه من ميراثى وأخرجته عن ولاية الثغر لئلاّ يجد العدوّ مساغاً بينكما فى اختلاف وصيتى فيسرع ذلك فى نقض أمرى ويجلب الفاقرة على دولتى ، وقد كفيتك الحيرة فيه فا كفه الحيف منك وكذلك سائر أهلك فيما صنعت فيهم بحسب ما قدرتُ به خلاصى من مال الله الذى فى يدى ، وخلافتك بعدى أجدى عليهم مما صدقته إليهم فلا تضيّع أمر جميعهم ، والحظهم بعينى فإنك أبوهم بعدى ، نخرّج ذكورهم باستخدامك ، وألحف إناثهم جناحك ، جبر الله جماعتهم وأحسن الخلافة عليكم ، فإن انقادت لك الأمور بالحضرة فهذا وجه العمل ، وسبيل السيرة ، وإن اعتاصت عليك فلا تلقينّ بيدك إلقاء الأمة ، ولا تبطر بك و بأصحابك النعمة والسلامة فتنسوا مالكم فى نفوس بنى أميّة وشيعتهم بقرطبة ، فإن قاومت مَن توثّب عليك منهم فلا تذهل عن الحزم فيهم ، وإن خفت الضعف فانتبذ بخاصّتك وغلمانك إلى بعض المعاقل التى حصّنتها لك ، واختبر غدك إن أنكرت يومك ، وإياك أن تضع يدك فى يد مروانىّ ما طاوعتك بنانك فإنى أعرف ذنبى إليهم » .

وأوصى ثقات غلمانه قائلاً : « تنبّهوا لأمركم واحفظوا نعمة الله عليكم فى طاعة عبد الملك أخيكم ومولاكم ، ولا تغرنّكم بوارق بنى أُميّة ومواعيد مَن يطلب منهم شتاتكم ، وقدّروا ما فى قلوبهم وقلوب شيعتهم بقرطبة من الحقد

عليكم فليس يرأسكم بعدى أشفق عليكم من ولدى ، وملاك أمركم أن تنسوا الأحقاد وأن تكونوا كرجل واحد فإنه لا يطمع فيكم » .

وما زال يكرّر هذا وشبهه لطائفة بعد أخرى حتى ضعف وشغل بنفسه .

ولما قضى وطره مما بينه و بين عبد الملك أمره أن يستخلف أخاه عبد الرحمن على العسكر إلى أن ينفذ إليه حكمه فيه ، وخرج عبد الملك إلى قرطبة ومعه القاضى ابن ذكوان فدخلها فى صدر شوال من العام (٣٩٢) فسكن الإرجاف بموت أبيه وعرّف الخليفة كيف تركه ، ووجد المنصور بعض الراحة وأمر أن تدخل عليه جماعة من خاصته ، فدنوا منه وهو كالخيال لا يبين كلاماً وأكثر عمله بالإشارة كالمسلّم المودّع وكان هذا آخر العهد به ، فقد أوجف إليه رائد المنون ليلة الاثنين لثلاث بقين من رمضان ، فهمدت حركته ، وخبا برقه ، وفارقت عالم الدثور والفناء هذه الشخصية الفذّة التى لا يجود بأمثالها الدهر إلا لماماً ، وهزم فى المعركة الدائبة بين الحياة والموت هذا الرجل الذى لم ينكب قطّ فى حرب شهدها وما انصرف عن موطن إلا قاهراً غالباً على كثرة ما زاول من الحروب ومارس من الأعداء وواجه من الأمم . ولقد هلك هذا الرجل الذى لم يكن وريث عروش ولا ربيب ملوك وهو فى أوج المجد وأعظم ما كان قوة ، ودفن بمدينة سالم وكتب على قبره :

آثاره تنبيك عن أخباره   حتى كأنّك بالعيان تراه

تالله لا يأتى الزمان بمثله   أبداً ولا يحمى الثغور سواه

وكتب راهب مسيحى فى حولياته « مات المنصور سنة ١٠٠٢ ودفن فى النار » والفضل ما شهدت به الأعداء ، والحقيقة أن نصارى الشمال فى إسبانيا لم يجدوا رجلاً أشدّ عليهم وطأة من المنصور، فقد غزاهم ستاً وخمسين غزوة فى سائر أيام ملكه لم تنتكس له فيها راية ، ولا فلّ له جيش ، ولا أصيب له بعث وأخبتت له ملوكهم ، وانقادوا لحكمه ، وضرب عليهم الجزية ، فأدّوها صاغرين وقد افتتح عواصمهم الثلاث وهى ليون و بنبلونة و برشلونة ومدناً أخرى كثيرة وخرّب كنيسة حامى جليقيـة وهدم مزار حامى قشتالة ، وكان المسيحيون يرتجفون رعباً إذا ذكر اسمه ، وقد نسى بعض أجناده رايته مركوزة على جبل بقرب إحـدى مدائن إسبانيا الشمالية فأقامت عدة أيام لا يعرف الإسبانيون ما وراءها بعد رحيل العساكر لأن قلوبهم أشربت خوف جنود المنصور .

ومر فى بعض غزواته بين جبلين عظيمين فى طريق عرض بوسط بلاد الإفرنج ، فلما جاوز ذلك المحـلّ وهو آخذ فى التحريق والتخريب والغارات والسبى يميناً وشمالاً لم يجسر أحـد من الإفرنج على لقائه حتى أقفرت البلاد مسافة أيام ، ثم عاد فوجـد الإفرنج قد استجاشوا من ورائه وضبطوا ذلك المدخل الضيّق الذى بين الجبلين ــ وكان الوقت شتاء ــ فلما رأى ما فعلوه رجع واختار منزلاً من بلادهم أناخ به فيمن معه من العساكر ، وتقدّم ببناء الدور والمنازل و بجمع آلات الحرب ونحوها و بثّ سراياه فسبت وغنمت فاسترقّ الصغار ، وضرب أعناق الكبار ، وألقى جثثهم حتى سدّ بها باب المدخل الذى

من جهته ، وصارت سراياه تخرج فلا تجد إلا بلداً خراباً ، فلما طال البلاء على العدو أرسلوا إليه فى طلب الصلح وأن يخرج بغير أسرى ولا غنائم فامتنع من ذلك فلم تزل رسلهم تتردد إليه حتى سألوه أن يخرج بغنائمه وأسراه ، فأجابهم « إن أصحابى أبوا أن يخرجوا وقالوا إنا لا نكاد نصل إلى بلادنا إلا وقد جاء وقت الغزوة الأخرى فنقعد ههنا إلى وقت الغزاة فإذا غزونا عدنا » فما زال الإفرنج يسألونه إلى أن قرّر عليهم أن يحملوا على دوابهم ما معه من الغنائم والسبى وأن يمدّوه بالميرة حتى يصل إلى بلاده وأن ينحّوا جيف القتلى عن طريقه بأنفسهم ، ففعلوا ذلك كلّه وانصرف .

وملأ المنصور الأندلس غنائم وسبياً من بنات الإفرنج وأولادهم ونسائهم ، وفى أيامه تغالى الناس فيما يجهّزون به بناتهم من الثياب والحلى والدور وذلك لرخص أثمان بنات الإفرنج ولولا ذلك ماتزوّج أحد حرة ، وقدروى المراكشى فى المعجب أنه نودى على ابنة عظيم من عظماء الإفرنج بقرطبة وكانت ذات جمال رائع فلم تساوأ كثر من عشرين ديناراً عامرية .

ولما ورد الخبر بموته قرطبة ركب ابنه عبد الملك إلى هشام الخليفة ونعى إليه المنصور أباه فأظهر الإشفاق وكان عبد الرحمن ابن المنصور قد تلوّم بالعسكر فى مدينة سالم بعد وفاة أبيه وهو ينتظر رأى أخيه عبد الرحمن فى القفول والغلمان مضطربون عليه وطمعوا فى ردّ الدولة إلى هشام، ولما قال لهم عبد الرحمن اصبروا كشفوا ما فى أنفسهم له وطلبوا أن يلحقوا بباب الخليفة وتقدّمه إلى

قرطبة نحو سبعمائة منهم ، ولما عرّف عبد الملك الخليفة بما اضطرب من أمر الفتيان أمره بتدبير أمرهم بحسب ما يستقيم به أمر الدولة وحذّره مواقعة الدماء وتلقيح الفتنة ، وخلع عليه وأخرج معه كتابًا بولاية الحجابة مكان أبيه ، وقرئ على الكافة وأنشأ الكتب إلى الأقطار ، وعاقب بعض الفتيان العاصين ، وأخرج بعضهم إلى سبتة ، ثم وافى العسكر الكبير مع أخيه عبد الرحمن واجتمع الشّمل وتمكّنت الطاعة وأيس الأعداء من دولة بنى عامر وعلموا أنها وراثة ، وأسقط عبد الملك سدس الجباية لأول ولايته فى جميع أقطار الأندلس فراقت أيامه ، وأحبّه الناس سرًّا وعلانية ، وانصبّ التأييد والإقبال عليه انصبابًا لم يسمع بمثله ، وسكن الناس منه إلى عفاف ونزاهة نفس ، وسار عبد الملك فى آثار ابيه وجرى على سننه فبلغت الأندلس فى أيامه إلى نهاية الجمال والكمال و الاستقرار والازدهار حتى قيل فيه إنه كان على أهل الأندلس أسعد مولود ولد ، وانهمك هشام طول أيام عبد الملك فلم يظهر للناس ، ولا شهد صلاة ، واحتجب فى نزهه الباطنة المستورة على رسمه فى أيام المنصور ، و بلّغه عبد الملك منها بغيته وجعل يخرجه إليها مع حرمه مستخفياً بعد طرد الناس عن طريقه ثم يعود إلى قصره ، ولم يطل أمد عبد الملك فقد مات فى أول سنة ٣٩٩ وخلفه أخوه عبد الرحمن وجرى على سنن أبيه وأخيه فى حجر الخليفة هشام والاستبداد عليه والاستقلال بالملك دونه ، ثم ثاب له رأى

فى الاستئثار بما بقى من رسوم الخلافة فطلب من هشام المؤيد أن يولّيه عهده فأجابه إلى ذلك ، وكان عبد الرحمن مفرطاً فى الشراب منغمساً فى الشهوات وقد اتهم بأنه سم أخاه عبد الملك وربما كان هذا الاتهام لا يقوم على أساس ولـكن المحقق أنه لم يكن فى حزم المنصور وكياسته وبعد نظره ولم يكن له همة أخيه عبد الملك ويقظته، وبرغم ذلك تطاول إلى حيث أحجم المنصور وأراد أن يجعل نفسه وارث الخلافة وقد أفضى ذلك إلى قتـله وصلبه وسقوط الأسرة العامرية ، ولم يكن من المنظور أن ينجح شَنْجُول ـ وهو لقب عبد الرحمن ـ حيث لم يوفق المنصور .

المنصور والأدب والفن

عرض المنصور مرة بظاهر قرطبة خيله ورجله وقد جمع من أقطار الأندلس ما ينهض به إلى قتال العدو وتدويخ بلاده فنيّف الفرسان على مائتى الف والرجّالة على ستمائة الف ، و بقوة هذا الجيش الكامل الأهبة ، الحسن الدربة ، دانت له الأندلس ، ولم يضطرب عليه شىء ، واستطاع أن يمكّن لحضارة الأندلس . وثقافتها ، و يوفّر لها الرخاء ، فاطّرد رقى الفنون والصناعات ، وتقدمت الحياة الفكرية ، إلا أن المنصور اضطرّ لأسباب سياسية محضة إلى الإمساك عن تشجيع الفلسفة خشية أن يثير غضب رجال الدين ـ وكان أكثرهم فى الأندلس من الغالين فى التشدد ـ وحسماً لأسباب الانتقاض والاختلال ، وكان مع ذلك يعطف على المفكرين الأحرار و يساعدهم ما وسعته المساعدة .

وقد أظلّ المنصور رجال الأدب برعايته ، وخصّهم بتشجيعه وعنايته ، فقصده الشعراء وتكاثروا ببابه ، وصحبوه فى غزواته الظافرة ، وحروبه العديدة وكان المنصور رجلاً عملياً قبل كل شىء ، ولكنه برغم ذلك كان لا يشجّع

الأدباء استيفاءً لشرائط السيادة ، واستكمالاً لأسباب الأبهة ، أو جريا على سمت الأمراء الأمويين فحسب بل لأنه كان يتذوّق الشعر ، ويميّز ألوان الأدب ، وإن لم يصل إلى دقة بصر الأمويين ، وجودة تمييزهم للملكات الأدبية ، والكفايات الفنّية ، وكان المنصور يقدّر قيمة الشعراء والكتاب من الناحية السياسية والوجهة الاجتماعية ويعرف أثرهم البعيد فى تكوين الرأى العام ، وتوجيه الأفكار ، ولفت الأنظار ، وقد كان هذا هو أكبر البواعث عند هذا السياسى الداهية إلى تقريبهم ، والعناية بهم واجتذابهم إلى صفّه .

واشتهر من بين هؤلاء الأدباء والشعراء أبو العلاء صاعد بن الحسين البغدادى النشأة اللغوى الشاعر وكان أحبّ رجال بطانته إليه وأكثرهم ادخالاً للسرور على نفسه ، وأخفّهم ظلاً على قلبه ، وربما لم يكن صاعد أهلاً لأن يشغل هذه المكانة السامية من نفس هذا الرجل العظيم ، ولكن مهما يكن من الأمر فان صاعداً كان رجلاً متوقد الذكاء ، طبّاً باستمالة الأهواء ، وقد عرف المنافذ إلى قلب المنصور وكيف يستدرّ عطفه ، ويستنزل برّه ، ويفوز بإعجابه ورضاه ، وقد كان الأندلسيون شديدى الغيرة من الوافدين على بلادهم من المشرق ، ميالين إلى الإلحاد فى كفايتهم ، والزراية بهم ، وقد استجهلوا صاعداً عند قدومه وثلبوه ، وطعنوا فى علمه ودينه وخلقه ، ولم يتركوا له أديماً مصحّاً ولكنّه بدهائه وذكائه استطاع أن يحملهم بعد ذلك على الإعجاب ببديهته الحاضرة وأجوبته المسكتة ونكاته المستملحة ، وكان صاعد رجلاً

كذوبًا ساخراً لعوبًا ، ولوعاً بتصيّد الغرائب ، والإتيان بالطرائف ، ولم يكن فيه دقّة العلماء وتحرّيهم ، ولا صدق سريرة الأدباء وتساميهم ، وإنما كان فيه لباقة المحدثين الفكهين البارعين ، وذكاء أهل الدنيا المداورين الناجحين ، وكان يحسن تحيّن الفرص ، ويجيد الضرب على الأوتار الحسّاسة .

ودخل صاعد قرطبة سنة ٣٨٠ فى خلافة هشام ، وبلغ المنصور قدومه وما أذاعه عن نفسه ، ففى مجلس من المجالس الأدبية التى كان يعقدها المنصور للمناظرة والمساجلات الأدبية وقد اجتمع عنده أعيان مملكته ودولته من أهل العلم مثل الزبيدى والعاصمى وابن العريف وغيرهم قال لهم المنصور « هذا الرجل الوافد علينا يزعم أنه متقدم فى علوم النحو واللغة والأدب وأحب أن يمتحن » فوجّه إليه ، فلما مثل بين يديه والمجلس قد احتفل خجل واعتاقت جنانه الهيبة ، ولحظ المنصور ذلك فرفع محلّه وأقبل عليه وسأله عن أبى سعيد السيرافى فزعم أنه لقيه ، وقرأ عليه كتاب سيبويه ، فبادره العاصمى بالسؤال عن مسئلة من الكتاب فلم يحضره جوابها واعتذر بأن النحو ليس جل بضاعته .

فانبرى له الزبيدى وقال له « فما تحسن أيها الشيخ ؟ »

فقال صاعد « حفظ الغريب »

فقال له الزبيدى « فما وزن أولق ؟ »

فضحك صاعد وقال « أمثلى يسأل عن هذا ؟ إنما يسأل عنه صبيان المكتب ! »

فقال الزبيدى « قد سألناك ولا نشك أنك تجهله »

فتغيّر لون صاعد وقال « أفعل وزنه »

فقال الزبيدى « صاحبكم ممخرق » !

فقال له صاعد ساخراً « إخال الشيخ بضاعته الابنية » !

فقال الزبيدى « أجل » .

فقال صاعد « و بضاعتى أنا حفظ الأشعار ، ورواية الأخبار ، وفك المعمّى وعلم الموسيقى ! » وناظره الأديب ابن العريف فظهر عليه صاعد وجعل لا يجرى فى المجلس كلمة إلا أنشد شعراً شاهداً أو أتى بحكاية تجانسها .

وتحوّل صاعد بعد ذلك من الدفاع إلى الهجوم فسألهم عن معنى قول امرئ القيس فى معلّقته .

كأن دماء الهاديات بنحره عصارة حنّاء بشيب مرجّل

فقالوا « هذا واضح و إنما وصف فرساً أشهب عقدت عليه الوحش فتطاير دمها على صدره فجاء هكذا » .

فقال صاعد « سبحان الله أنسيتم قوله قبل هذا .

كُميت يَزِلُّ اللِّبد عن حال متنه كما زلّت الصَّفواء بالمتنزّ ل

فبهتوا كأنهم لم يقرءوا هذا البيت قط ، واضطروا إلى سؤاله عنه فقال « إنما عنى أحد وجهين إما أنه يغشى صدره بالعرق وعرق الخيل أبيض فجاء مع الدم كالشيب ، و إما شىء كانت العرب تصنعه وهو أنها كانت تسم باللبن

الحارّ فى صدور الخيل فيتمعّط ذلك الشعر و ينبت مكانه شعر أبيض فأيّما عنى من أحد هذين الوجهين فالوصف مستقيم » .

فأعجب المنصور به ، وأراه كتاب النوادر لأبى على القالى فقال صاعد « إن أراد المنصور أمليت على كتاب دولته كتاباً أرفع منه وأجلّ لا أورد فيه خبراً مما أورده أبو على » فأذن له المنصور فى ذلك ، وكان المنصور يريد أن يعفّى به آثار أبى على البغدادى الوافد على بنى أمية ، ووالى صاعد الجلوس بجامع مدينة الزاهرة حتى أتمّ كتابه المترجم بالفصوص ، فلما أكمله تتبّعه أدباء عصره فلم تمر فيه كلمة صحيحة عندهم ، ودحضوه ورفضوه ، وأقنعوا المنصور بأن الكتاب لا يحوى سوى أكاذيب ملفّقة ، وادّعاءات مستمدة من خيال مؤلّفه ، وساء ذلك المنصور الذى كان يريد أن يفاخر بصاعد بنى أمية ، وفى بعض الروايات أنه أمر بإلقاء الكتاب فى النهر ، ولكنه برغم ذلك ظل راضياً عن صاعد .

ومما أضعف الثقة بصاعد على سعة علمه ، والتماع ذكائه ، كثرة أكاذيبه ، وادعاؤه معرفة كل شىء ، والإجابة عن كل سؤال يوجه إليه من غير تدبر ولا إعمال روية ، وقد أراد مرة جماعة من منافسيه أن يطلعوا المنصور على كذبه وادعائه فاقترحوا على المنصور تجليد كراريس بيض تزال جدّتها حتى توهم القدم ، فلما جمعت فى مجلّد كتب فى أوله « كتاب النكت تأليف أبى على الغوث الصنعانى » .

فلما جاء صاعد ورأى الكتاب ترامى عليه وجعل يقبّله و يقول « اى والله قرأته بالبلد الفلانى على الشيخ أبى فلان »

فأخذه المنصور من يده خوفاً أن يفتحه وقال له « إن كنت قد قرأته كما تزعم فعلامَ يحتوى ؟ » فقال صاعد « وأبيك لقد بعد عهدى به ولا أحفظ الآن منه شيئاً ولكنه يحتوى على لغة منثورة لا يشوبها شعر ولا خبر » .

فقال المنصور « أبعد الله مثلك ! فما رأيت أكذب منك » وأمر بإخراجه

على أن المنصور أَلِفَ بعد ذلك أكاذيب صاعد ، وصار يجد فيها لوناً من التسلية يتلهّى به فى ساعات فراغه واستجمامه ، قال له المنصور مرّة وقد قدّم طبق فيه تمر « يا أبا العلاء ما التمركل فى كلام العرب ؟ »

فقال صاعد « يقال تمركل الرجل تمركلاً إذا التفّ فى كسائه » وله من هذا كثير مع المنصور .

وجمع مرّة خرق الأكياس والصُّرَر التى قبض فيها صلات المنصور فقطّعت لكافور غلامه الأسود قميصاً كالمرقعة ، و بكّر به إلى قصر المنصور ، واحتال فى تنشيطه والتسرية عنه حتى طابت نفسه فقال له : « يامولانا لعبدك حاجة ! »

فقال له المنصور « اذكرها »

فقال « وصول غلامى كافور إلى مجلسك »

فقال المنصور « وعلى هذه الحال »

فقال صاعد « لا أقنع إلا بحضوره بين يديك »

فقال المنصور « أدخلوه » .

فمثل كافور قائماً بين يديه فى مرقعته وهو كالنخلة إشرافا ، فقال المنصور « قد حضر و إنه لبازل الهيئة ، فمالك أضعته ؟ »

فأجاب صاعد « يامولانا هنالك الفائدة ، اعلم يامولاى أنك وهبت لى إلى اليوم ملء جلد كافور مالاً »

فتهلّل المنصور وقال : « لله درُّكَ من شاكر مستنبط لغوامض معانى الشكر » وأمر له بمال واسع وكسوة وكسا كافوراً أحسن كسوة .

وكان مرّة بين يدى المنصور ، فأحضرت إليه وردة فى غير وقتها لم يستتم فتح ورقها فقال فيها صاعد مرتجلاً :

أتتك أبا عامر وردة يذكّرك المسك أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر فغطّت بأكمامها رأسها

فسرّ بذلك المنصور ، وكان ابن العريف حاضراً ، فحسد صاعداً وجرى إلى مناقضته وقال للمنصور « هـذان البيتان لغيره ، وقد أنشدنيهما فى مصر بعض البغداديين لنفسه ، وهما عندى على ظهر كتاب بخطّه » فقال له المنصور « أرنيه » ؟

فخرج ابن العريف وركب من فوره دابّته حتى أتى مجلس ابن بدر وكان

أحسن أهل وقته بديهة فوصف له ما جرى ، فقال هذه الأبيات ودسّ فيها بيتي صاعد :

عشوت إلى قصر عبّاسة وقد جدّل النوم حرّاسها
فألفيتها وهى فى خدرها وقد صرع السكر أُناسها
فقالت: «أسار على هجعة ؟» فقلت: «بلى» فرمت كأسها
ومدّت يديها إلى وردة يحاكى لك الطيب أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر فغطّت بأكمامها رأسها
وقالت خف الله لا تفضحن فى ابنة عمك عبّاسها
فولّيت عنها على غفلة وما خنت ناسى ولا ناسها

فطار ابن العريف بها ، وعلّقها على ظهر كتاب بخطّ مصرى و بمداد أشقر ودخل بها على المنصور فلما رآها اشتدّ غيظه وقال للحاضرين « غداً أمتحنه فإن فضحه الامتحان أخرجته من البلاد ولم يبق فى موضع لى عليه سلطان ! »

فلما أصبح وجّه إليه فأُحضر وأحضر معه جميع الندماء فدخل بهم إلى مجلس محتفل قد أعدّ فيه طبقاً عظيماً فيه سقائف مصنوعة من جميع النواوير ووضع على السقائف لعب من ياسمين فى شكل الجوارى ، وتحت السقائف بركة ماء قد ألقى فيها اللآلئ مثل الحصباء ، وفى البركة حيّة تسبح فلما دخل

صاعد ورأى الطبق قال له المنصور « إن هـذا اليوم إما أن تسعد فيه معنا
و إما أن تشقى بالضد عنـدنا ، لأنه قد زعم قوم أن كل ما تأتى به دعوى ،
وقد وقفت من ذلك على حقيقة ، وهـذا طبق ما توهّمت أنه عمل لملك مثله
فإن وصفته بجميع ما فيه علمت صحّة ما تذكره » .

فقال صاعد بديهة :

أبا عامر هل غير جدواك واكف ... وهل غير من عاداك فى الأرض خائف
يسوق إليك الدهر كل غريبـة ... وأعجب ما يلقاه عنـدك واصف
وشائع نور صاغها هامر الحيـا ... على حافتيها عبقر ورفارف
ولما تناهى الحسن فيها تقابلت ... عليها بأنواع الملاهى الوصائف
كمثل الظباء المستكنة كنّساً ... تظلّلها باليـاسمين السقائف
وأعجب منها أنهنّ نواظر ... إلى بركة ضمّت إليها الطرائف
حصاها اللآلى سابح فى عبابهـا ... من الرقش مشؤوم الثعابين زاحف
ترى ما تراه العين فى جنباتها ... من الوحش حتى بينهنّ السلاحف

فعجب الحاضرون من بديهته فى مثل ذلك الموضع وكتب المنصور
الأبيات بخطّه :

وكان إلى ناحية من تلك السقائف سفينة فيها جارية من النور تجذب
بمجاذيف من ذهب لم يرها صاعد ، فقال له المنصور « أحسنت ! إلاّ أنك
أغفلت ذكر المركب والجارية » فقال للوقت :

وأعجب منهـا غادة فى سفينة   مكلَّلة تصبو إليهـا المهـاتف
إذا راعها موج من المـاء تتقى   بسكّانهـا ما أنذرته العواصف
متى كانت الحسناء ربّان مركب   تصرّف فى يمنى يديها المجاذف
ولم تر عينى فى البـلاد حديقة   تنقّلها فى الراحتين الوصائف
ولا غرو إن ساقت معاليك روضة   وشتها أزاهير الربى والزّخارف
فأنت امرؤ لو رمت نقل متالع   ورضوى ذرتها من سطاك نواسف
إذا رمت قولاً أو طلبت بديهة   فكانى لهـا إنى لمجدك واصف

فأمر له المنصور بألف دينار ومائة ثوب ورتّب له فى كل شهر ثلاثين ديناراً وألحقه فى ديوان الندماء ، وتربّص صاعد بقوة عارضته وحضور ذهنه لابن العريف لينتصر عليه فى معركة حاسمة ، وسرعان ما أسعفته الأقدار فقد دخل ابن العريف على المنصور وعنده صاعد فأنشده وهو بالموضع المعروف بالعامرية من أبيات :

فالعـامرية   تزهى   على جميع المبـانى
وأنت فيهـا كسيف   قد حلّ فى غمدان

فأظهر صاعد للمنصور أن فى استطاعته أن يرتجل خيراً من هذا الشعر الذى أعدّه ابن العريف وروّى فيـه ، فطلب منه المنصور أن يفعل ليظهر صدق دعواه فقال من غير فكرة طويلة :

يا أيها الحاجب المعـتلى على كيوان

ومن به قد تناهى نخار كل يمانى
العامرية أضحت كجنّة الرضوان
فريدة لفريد ما بين أهل الزمان

ثم مرّ فى الشعر إلى أن قال فى ختام الأبيات :

فدم مدى الدهر فيها فى غبطة وأمان

فأعجب المنصور ببداهته وقال لابن العريف « مالك فائدة فى مناقضة من هذا ارتجاله ، فكيف تكون رويته » ؟

فأجابه ابن العريف « إنما انطقه وقرّب عليه المأخذ إحسانك ! »

فقال له صاعد « يفهم من هذا أن قلة إحسانه إليك أسكتتك و بعّدت عليك المأخذ » !

فضحك المنصور وقال : « غير هذه المنازعة أليق بأدبكما » !

ومن عيون شعر صاعد القصيدة التى هنّأ بها المنصور بفتح جر بيرة وهى الغزوة التى لم يباشر المنصور أشدّ عليه منها ولا أصعب مقاماً ، وقد أشرف فيها المنصور على الهزيمة لولا رباطة جأشه وحضور ذهنه الذى أنقذ الموقف ، وفيها يقول صاعد :

جدّدت شكرى للهوى المتجدّد وعهدت عندك منه ما لم يعهد
اليوم عاش الدين وابتدأ الهدى غضًّا وعاد الملك عذب المورد
ووقفت فى ثانى حُنين وقفة فرأيت صنع الله يؤخذ باليد

من فاته بدر وأدرك عمره جريبير فهو من الرعيل الأسعد
فوددت لو حكم القضاء بأننى فى القوم أول طالع مستشهد
ما أستكين لروعه ومحمّد وبنوه أنصار النبى محمّد
عهدى به والله ينظر صبره والموت بين مصوّب ومصعّد
غطّى عليه المشركون فلم يكن فى القوم إلا صخرة فى فدفد
حتى تحصّن بالملائكة التى حفّته بين معفّر ومردّد
حملت ميامنهم عليك نشيجة كالسيل يحطم جلمداً عن جلمد
ورأوك فارتدّوا على أعقابهم مثل ارتداد تنفّس المتنهّد
ما ناجزوك وفى الجوانح موضع لتصبّر ومكانة لتجلّد
طال الشقاء عليهم وتبرّموا بالجيش فى الذل المقيم المقعد
فتحالفوا لمحنّث وتجمّعوا لمفرّق وتألّفوا لمبدّد

وكان صاعد كثيراً ما يمدح بلاد العراق بمجالس المنصور ويصفها و يقرّظها فكتب الوزير أبو مروان عبد الملك بن شهيد إلى المنصور فى يوم برد بهذه الأبيات :

أما ترى برد يومنا هذا صيّرنا للكمون أفذاذا
قد فطرت صحة الكبود به حتى لكادت تعود أفلاذا
فادع بنا للشمول مصطلياً نغذ سيراً إليك إغذاذا
وادع المسمى بها وصاحبه تدع نبيلا وتدع أستاذا

ولا نبالى أبا العلاء زها بخمر قُطْرُبُّل وكلواذا

ما دام فى أرملاط مشربنا دع دير عمى وطيرناباذا

وكان المنصور قد عزم فى ذلك اليوم على الانفراد بالحرم فأمر بإحضار من جرى رسمه من الوزراء والندماء وأحضر ابن شهيد فى محفّة لنقرس كان يعتاده ، وأخذوا فى شأنهم فمرّ لهم يوم لم يشهدوا مثله ، وطما الطرب وسما بهم حتى تهايج القوم ورقصوا وجعلوا يرقصون بالنوبة حتى انتهى الدور إلى ابن شهيد فأقامه الوزير أبو عبد الله بن عبّاس فجعل يرقص وهو متكىء عليه ويرتجل ويومىء إلى المنصور وقد غلب عليه السكر :

هاك شيخاً قاده سكر لكا قام فى رقصته مستهلكا

لم يطق يرقصها مستثبتاً فانثنى يرقصها مستمسكا

عاقه عن هزّها منفرداً نقرس أخنى عليه فاتكا

من وزير فيهم رقّاصة قام للسكر يناغى ملكا

أنا لو كنت كما تعرفنى قمت إجلالاً على رأسى لكا

قهقه الإبريق منى ضاحكاً ورأى رعشة رجلى فبكى

وكان حاضرهم فى ذلك اليوم رجل بغدادى حسن النادرة سريعها، فلمّا رأى ابن شهيد يرقص قائماً من ألم المرض الذى كان يمنعه من الحركة قال « لله درّك يا وزير ! ترقص بالقائمة وتصلّى بالقاعدة ؟ »

فضحك المنصور وأمر لابن شهيد بمال جزيل ولسائر الجماعة وللبغدادى

ودخل صاعد على المنصور فى يوم عيد وعليه ثياب جدد وخفّ جديد فمشى على حافة البركة لازدحام الحاضرين فى الصفّ فزلق فسقط فى الماء فضحك المنصور وأمر بإخراجه وقد كاد البرد يأتى عليه فخلع عليه وأدنى مجلسه وقال له: « هل حضرك شىء ؟ » فقال :

شيئان كانا فى الزمان عجيبة ضرط ابن وهب ثم وقعة صاعد

فاستبرد ما أتى به أبو مروان الكاتب الجزيرى — وكان من شعراء المنصور ووزرائه — وقال هلاّ قلت :

سرورى بغرّتك المشرقه وديمة راحتك المغدقه

ثنانى نشوان حتى هويـ ـت فى لجّة البركة المطبقة

لئن ظلّ عبدك فيها الغريـ ـق فجودك من قبل ذا أغرقه

فقال المنصور لله درك يا أبا مروان قسناك بأهل بغداد ففضلتهم فبمن نقيسك بعد ؟

وكان الجزيرى شاعراً بليغاً حاضر البديهة جزل الأسلوب ، كان ليلة بين يدى المنصور والقمر يبدو تارة ويخفيه السحاب تارة فقال بديهة :

أرى بدر السماء يلوح حيناً فيبدو ثم يلتحف السحابا

وذاك لأنه لمّا تبدّى وأبصر وجهك استحيا فغابا

مقال لو نمى عنّى إليه لراجعنى بتصديقى جوابا

وفى يوم احتفال المنصور بتطهير ابنه عبد الرحمن — وكان عام قحط —

نشأت فى السماء سحابة عمّت الأفق، ثم أتى المطر الوابل فاستبشر الناس ، وسرّ المنصور ، فقال الجزيرى بديهة :

أما الغمام فشــاهد لك أنه ... لاشك صنوك أو أخوك الأوثق
وافى الصنيعَ فحين تمّ تمـامه ... فى الصحو أنشأ ودقه يتدفّق
وأظنه يَحكيك جوداً إذ رأى ... فى اليوم بحرك زاخراً يتفهّق

ومن قوله فى قصيدة يمدحه :

ملك جهلنا قبلـه سبل العلى ... حتى وضحن بنهجـه وشراعه
فى سيفه قصر[1] لطول نجاده ... وتمـام ساعده وفسحة باعه
ذو همّة كالبرق فى إسراعه ... وعزيمة كالحين فى إيقاعه

وكان المنصور يهتزّ للشعر و يطرب له و يتأثّر به ، دخل عليه سعيد بن محمّد المروانى وقد هجره المنصور مدة لـكلام بلغه عنه والمجلس غاصّ بالناس وأنشد:

مولاى مولاى أما آن أن ... تريحنى بالله من هجركا
وكيف بالهجر وأنّى به ... ولم أزل أسبح فى بحركا

فضحك ابن أبى عامر على ما كان يظهره من الوقار وقام وعانقه وعفا عنه وخلع عليه .

على أن المنصور كان يراعى الاعتبارات السياسية قبل كل شىء، فقد وفد

---

(١) واضح من هذا الوصف أن المنصور كان طويل القامة

عليه الشاعر أبو عبد الله محمد بن مسعود الغسّانى واتهم برهق فى دينه فسجنه فى المطبق فقال يخاطب المنصور بهذه الأبيات الصارخة :

دعوت لما عيل صبرى فهل　　يسمع دعواى المليك الرحيم
مولاى مولاى ألا عطفة　　تذهب عنّى بالعذاب الأليم
إن كنت أضمرت الذى زخرفوا　　عنى فدعنى للقدير الرحيم
فعنده نزّاعـــة للشوى　　وعنده الفردوس ذات النعيم

فلم يعره المنصور سمعه ولم يعبأ بشكواه .

وللمنصور مقطوعات فى الفخر والحماسة أدلّها على شخصيته وأنمّها على مواقفه هذه الأبيات

ألم ترنى بعت الإقامة بالسرى　　ولين الحشايا بالخيول الضوامر
تبدّلت بعد الزعفران وطيبه　　صدا الدرع من مستحكمات المسامر
أرونى فتى يحمى حماى وموقفى　　إذا اشتجر الأقران بين العساكر
أنا الحاجب المنصور من آل عامر　　بسيفى أقدّ الهام تحت المغافر
تلاد أمير المؤمنين وعبده　　وناصحه المشهود يوم المفاخر
فلا تحسبوا أنى شغلت بغيركم　　ولكن عهدت الله فى قتل كافر

وفى اعتقادى أن المنصور على قوّة عقله ، واستقامة فهمه ، لم يكن نافذ النظر ولا صادق الحكم فى تقديراته الأدبية ، وكان لا يستطيع أن يميّز بين براعات النظم وومضات الذكاء ، وبين نفحات العبقرية و إلهام الطبع ، ولذا

نفقت عنده سوق صاعد وأمثاله ، ولم ينل مكانة تقارب مكانتهم عنده رجل مثل ابن درّاج القسطلّىّ ، وهو أشعر منهم ، وأصدق إحساساً ، وأقوى فنّاً ، و إنما تجلّت عبقرية المنصور فى المسائل العملية والجوانب المادّية ، وكان تيسير المواصلات و إصلاح الطرق و إقامة الجسور شغله الشاغل ومناط عنايته فشيّد طرقاً شتى وأقام قنطرة على نهر قرطبة عظمت بها المنفعة وقنطرة أخرى على نهر إستجة وهو نهر شنيل ، وسهّل الطرق الوعرة والشعاب الصعبة ووسّع جامع قرطبة وشيّد فى الزاهرة القصور الفخمة والمتنزّهات الجميلة ، وكان يتحرّى فى مبانيه الوثاقة و المتانة والضخامة أكثر مما يقصد إلى الجمال والرشاقة .

المنصور في الميزان

الطموح هو مفتاح أخلاق المنصور وأساس شخصيته ، يؤيّد ذلك هذه الرغبة الملحّة فى احتمال التبعات ، وطلب جسيمات الأمور ، والتعرض للأخطار فى ذلك السبيل ، وكانت العاطفة الغالبة على نفسه هى حبّ السلطة ، وطلب السيادة ، ومن أقواله فى ذلك « مَن عدل بالأمر والنهى لذّة فقد انتفى من الذكورة » ، وكان لا ترقّ عزيمته عما يروم ، ولا يحيد عن منهجه ، ولا ينحرف عن قصده ، وكان مزوّداً بجميع المؤهلات فهو يحسن معاملة الرجال ومعالجة الحوادث .

وهو رجل عملى من فرعه إلى قدمه ، لا يفكّر فى المبدأ والمصير ولا كيف جاء إلى هـذه الدنيا الحافلة بالعجائب والغرائب ، فغوامض الحياة لا تستأثر بتفكيره ولا تلهيه عن غاياته ، وهو لا يسير بين مضارب الشكوك ولا يرتاد شواطئ المجهول ، ولا يطوف بالنواحى الساحرة البهيجة التى صوّرها عمر الخيّام ولا يتّخذها له نزُلاً ، وخير علاج لكل مشكلة عنده هو العمل والحركة

والنشاط ، وأن يكون رجلاً لا مفكّراً ، وهكذا كان يلقى الحياة بعزم ناهض وإيمان بنفسه لا تزعزعه الشكوك ، ولا تضعفه الحوادث .

وهو يخرج من كل مأزق ، ويعلو على كل عقبة ، ولكن براعته الأصيلة هي فى أنه سائر طبق خطة مرسومة ، وعلى نهج معلوم ، وبرغم ذلك لا يضيق ذرعاً بالعقبات المعترضة ، والصعاب المباغتة ، بل سرعان ما يذلّلها ، ويروض عصيّها ، وقد كان بارعاً فى السياسة ، وحبك الدسائس ، وإحكام المؤامرات ، قديراً فى الرياء والمكر والمداهنة ، وقد وصفه خصومه « بالثّعلب » وقد كان فيه مراوغة الثّعلب ولكن من الحق أن نقول إنه كان يداول بين جلد الثعلب ومِسلاخ الأسد .

وكان جسمه خاضعاً لعقله ، ولذّاته وشهواته خاضعة لطموحه، أُصيب مرّة بداء فى رجله واحتاج إلى الكىّ فأمر الذى يكويه بذلك وهو قاعد فى موضع مشرف على أهل مملكته فجعل يأمر وينهى ويفرى الفرى فى أموره ورجله تكوى والناس لا يشعرون حتى شمّوا رائحة الجلد واللحم فتعجّبوا من ذلك وهو غير مكترث .

وكانت فيه صفتان بارزتان من صفات رجال الأعمال وقادة الرجال وهما أنه يعرف ما يريد ويرى الأشياء على حقيقتها ، ويحتفظ بهدوئه واتزانه فى الأزمات، ولا يفقد سرعة بتّه فى المواقف الحاسمة، وكلما ازداد الموقف شدّة ازداد

فكره دقة ، وخاطره سرعة ، وعرف موضع الضربة ، وكان يفهم عقول الناس فهماً مباشراً ، ويستفيد من فهمه لعقلية رجاله وعقلية أعدائه .

وقد امتاز بسرعة الإدراك وإتقان ما يتولاه من الأعمال ، وتدرج من رجل دواوين إلى بطل من أبطال الميادين ، وأعانه على ذلك أن عقله كان متسع الجوانب ، وخياله جم النشاط ، وكان يحاول أن يلم بكل شيء ويتعرف التفصيلات ، فهو كفء لتناول المواقف المعقدة لأنه يستطيع الإحاطة بجوانبها العديدة ، وفهم فروقها الدقيقة ، وكان يرى شيئين بوضوح تام : الموقف الذى يواجهه والوسائل التى يملكها ، فلا يسمح للمظاهر أن تغرر به ولا للأمانى أن تخدعه ، ويعرف من بادئ الأمر كيف يضع أساس بنائه ويدخل البيت من بابه ، ويكبح جماح نفسه ، ويعرف ساعة العمل فلا يتأخر عنها ولا يتقدم عليها ، وهو ينظر إلى كل شيء من ناحيته العملية النفعية والاستغراق فى التأمل لا يلائم هذه الطبيعة العملية الخالصة ، وهو مسوق برغبة حادة إلى السيطرة على الموقف الذى يعرض له ، وفى الوقت نفسه تحدوه إرادة قوية مصممة . تخلق حوله جواً ساحراً وتجتذب نحوها كل عنصر من عناصر القوة حولها وتخضعه .

ولم يضعف النجاح تفكيره وقدرته على وزن الأمور ولم يراخ من عزمه ويقظته وهى الصفات اللازمة للاحتفاظ بالقوة ، حدث شعلة فتاه قال : « غلب على السحر عند مولاى وقد اختلف ما بينه وبين الخليفة فكان يصعد إلى قبته المسماة بلؤلؤة وغيرها من مستشرفاته يرعى النجوم وينفرد بنفسه ويكب

على الفكرة والشمعة بين يديه والدرج ملقى على الدواة إلى جانبه فإذا ثاب له رأى أثبته ولا يزال كذلك إلى أن يدنو الفجر فيستلقى على مهاد يجده فى كل وجهة من أماكن خلوته فلايتحصّل لأهله على الحقيقة مكان مرقده ، ولايزال قائماً على القدم حتى تدنى منه سواكه ووضوءه ويؤذّنه المؤذّن بالصلاة فيقضيهما ويربط الدرج فى منديل كمّه، ويرفع الستر عنه ، فيدخل من رسمه البكور من الخاصة والوزراء والصحابة ، فيناظرهم فيما رسمه ليله ، ويأمر بتقييد ما شاء منه إلى أن يرتفع النهار ، ويجتمع الناس ، فيأخذ فى النظر العام ، ويناولنى الدرج فأقطّعه صغاراً وأغرقه فى ماء ورد حتى تخفى أجزاؤه ، ولقد قلت له ليلة « قد أفرط مولانا فى السهر ، وبدنه يحتاج إلى أكثر من هذا النوم ، وهو يعلم ما يحرّك عليه السّهر من علّة العصب » فقال « يا شعلة حارس الدنيا لا ينام إذا نامت الرعيّة ، ولو استوفيت نومى لما كان فى دور هذا البلد عين نائمة ، ولو كنت من صاحب القصر - وأشار إلى ناحية قصر الخليفة - على مثل مسافة بسطة لأحرمت النوم فكيف وإنما بيننا مدى صيحة » .

وكانت تلتقى فى هذه الشخصية العجيبة النادرة المثال عوامل الخير ونوازع الشر وتمتزج امتزاجاً محيّراً ، وكان يعرف ذلك من نفسه . دخل عليه أبو محمد الباجى الراوية وقال له: « أصلحك الله يا حاجب وحفظك ووفّقك وأحسن عونك » فردّ عليه المنصور أجمل ردّ وبجله ووقره وأدنى مكانه حتى أقعده إلى جانبه وقال له: « كيف أنت اليوم وحالك » ؟ فقال له « بخير ما كنت به »

ثم قال له الباجى « أىّ والد كان لك رحمة الله عليه ، كان والله ما علمت من أهل الخير والعافية والصلاح والعفة والحرص على الطلب والمعرفة ، اختلف معى إلى محمد بن عمر بن لبابة و إلى أحمد بن خلد و إلى محمد بن فطيس الإلبيرى وغيرهم ، وكان لى خير صديق وصاحب أنتفع به و ينتفع بى ، وأقابل معه كتبه وكتبى ، ولم يكن فضولياً البتة ، وأما أنت فلم تتمثّله ، وأدخلت يدك فى الدنيا فانغمست فى لجّها ، وطلبت الفضول فعلمت أخباراً كثيرة ، وأو بقت نفسك والله يا مغرور وعزّ على انتشابك » فقال له المنصور : « يا فقيه هكذا صاحب الدنيا لابد أن يخلط خيراً بشر ، و يأتى معروفاً ومنكراً والله يتوب على من يشاء برحمته » وسأله الباجى أثر هذا رفع الغرامة من ماله بإشبيلية فأمر بإسقاطها ، ووصله ببدرة دراهم كاملة ومنديل وكسوة تشا كله فيها خلعة تامة .

وكان المنصور مهيباً وقوراً فاذا خلا كان أحسن الناس مجلساً وأسرّهم بمن حضر منادماً ومؤانساً ، ولكنه كان شديد القلق من التبسّط عليه والدالة والامتنان لا يغفرها زلّة ولا يحلم عنها جريرة ، ولم يكن يسامح فى نقصان الهيبة وحفظ الطاعة أحداً من ولد ولا ذى خاصة ، وقد دعاه ذلك إلى قتل ولده عبدالله صبراً بالسيف ، شرب يوماً معه أبو مضر محمد بن الحسين التميمى الطُّبْنِى — وهو شاعر مكثر وأديب متفنن — فغنّت قينة بيتين من شعره وهما :

صدفت ظبية الرصافة عنّا ‏ وهى أشهى من كل ما يتمنّى

هجرتنا فما إليها سبيل ‏ غير أنّا نقول كانت وكنّا

فاستعادها أبو مضر فأنكر ذلك المنصور وعلم أن هيبته لم تملأ قلبه فأومأ إلى بعض خصيانه فأخرج رأس الجارية فى طست ووضعه بين يدى الطبنى وقال له المنصور « مرها فلتعد » فسقط فى يده ، على أن المنصور لما ثبتت مكانته واستقرت فى النفوس هيبته كان فى بعض المواقف يكبح جماح غضبه فيلين بعد الاشتداد ، حكى الوزير الكاتب أبو المغيرة ابن حزم أنه نادم المنصور فى مُنْيَة السرور بالزاهرة فلما انصرم النهار ، ورفرف الليل وأسبل جنحه ، ودارت كؤوس الراح غنّتهم جارية بأبيات من الشعر رقيقة ، فلما أكملت الغناء ردّ على المقطوعة التى تغنت بها أبو المغيرة بأبيات غزلية من البحر والقافية فعند ذلك غضب المنصور وبادر لحسامه وأغلظ لهما فى القول وقال للجارية « قولى وأصدقى إلى من تشيرين بهذا الشوق والحنين » فقالت الجارية « إن كان الكذب أنجى فالصدق أحرى ، والله ما كانت إلا نظرة ولدت فى القلب فكرة فتكلّم الحب على لسانى ، والعفو مضمون لديك عند المقدرة » ثم بكت ، فصرف المنصور غضبه إلى أبى المغيرة ابن حزم وسلّط عليه سخطه فقال أبو المغيرة « أيدك الله تعالى إنما كانت هفوة جرّها الفكر ، وصَبْوَة أيدّها النظر ، وليس للمرء إلا ماقدّر له لا ما اختاره وأمّله » فأطرق المنصور قليلاً ثم عفا وصفح وخلّى سبيله ووهب له الجارية .

ونلمح فى الرجال الذين بلغوا ذروة المجد وسيطروا على نفوس البشر تغلّب إحدى غريزتين عليهم ، وهما غريزة حب النظام أو غريزة العطف الجمّ وحبّ

الإنسانية ، والغريزة الأولى قد تنحدر إلى الإسراف فى الطغيان ، واللجوء إلى العنف فى كل شىء ، والغريزة الثانية قد ينحل جسمها وترقّ حتى تصبح نوعاً من الحساسية المريضة ، والموازنة بين هاتين العاطفتين تخرج قائد الرجال وسيّدهم ، وكذلك كان المنصور ، فهو على جبروته وقسوته يترضّى السيدة التى أصرّت على أن يكون بالدار التى تنقل إليها نخلة مثل نخلتها التى ستفارقها ، وقد روى أن أحد رسله كان كثير الانتياب لبلاد البشكنس ، فسار فى بعض مسيراته إلى غرسية صاحب البشكنس ، فوالى فى إكرامه وتناهى فى برّه ، وطالت مدته، وطاف بأكثر بلاده ، فبينما هو يجول فى ساحاتها و يجيل العين فى أنحائها إذ عرضت له امرأة قديمة الأسر وكلّمته وعرّفته بنفسها ، وقالت له « أيرضى المنصور أن ينسى بتنعّمه بؤسى ، ويتمتّع بلبوس العافيـة وأنا ألقى الهوان والذل، وزعمت أن لها عدة سنين بتلك الكنيسة محبوسة ، وناشدته الله فى إنهاء قصّتها ، واستحلفته بأغلظ الإيمان ، وأخذت عليـه أوكد المواثيق ، فلما وصل المنصور عرّفه بما يجب تعريفه وهومصغ إليه حتى تمّ كلامه، فلما فرغ قال له المنصور هل وقفت هناك على أمر أنكرته ؟ أم لم تقف على غيرما ذكرته ؟ فأعلمه بقصة المرأة وما خرجت عنه إليه، فعتبه ولامه على أن لم يبدأ بها كلامه، ثم أخذ للجهاد من فوره حتى وافى بلاد غرسية فى جمعه فبادر بالكتاب إليه يتعرّف ما الجليـة و يحلف أنه ما جنى ذنباً ، فعنّف المنصور رسله ، وقال لهم

« قد كان عاهدنى ألا يبقى فى بلاده مأسورة ولا مأسوراً وقد بلغنى بعد بقاء فلانة المسلمة فى تلك الكنيسة ، والله لا أنتهى عن أرضه حتى أكتسحها » فأرسل إليه المرأة فى اثنتين معها وأقسم أنه ما أبصرهن ولا سمع بهن ، وأعلمه أن الكنيسة التى أشار بعلمها قد بالغ فى هدمها تحقيقاً لقوله فاستحيا منه وصرف الجيش عنه وحمل المرأة إلى قومها .

وعند تقدير أخلاق المنصور لا نستطيع أن ننسى أنه فى سبيل الوصول إلى المكانة العالية التى انتهى إليها والمحافظة عليها قد ارتكب بعض الجرائم التى تثلم المروءة ، وتطفئ من لمعان شهرته ، ولست أحاول التهوين من أمرها ، فهو مثلا قد استغلّ ضعف امرأة ومثّل لها دور المحب الواله حتى خدعها عن نفسها واستغلّ ذلك للحجر على ابنها ، وطمس شخصيته ، وقتل مواهبه ، ليخلو له الجو ، ولكن الواقع أن أندر شىء فى معظم الرجال الذين صنعوا التاريخ ، وسيطروا على الحوادث ، ووجّهوا الأمم ، هو عظمة النفس وسمو الروح ، وأساس هذه العظمة هو التضحية بالمنافع فى سبيل الأخلاق الكريمة ، والنزعات الإنسانية ، وإنكار النفس إنكاراً منبعثاً من الإرادة القوية بدافع من طيبة القلب وصفاء النفس لا من ناحية الحزم والتدبير والاحتيال ، والسياسى العظيم ورجل الدنيا وواحدها فى أغلب الأوقات شديد الأثرة كثير الاعتداد بنفسه يحاول أن يستغل كل شىء لنجاحه الشخصى ويجرّ منه المغنم ويحصل على المنفعة ويحاول فى كل مناسبة أن يزيد قوته ، ويوطّد أقدامه ،

وزيادة القوة ليس من شأنها أن تزيد الإنسان على الدوام رفعة وسمواً ، والنجاح عند السياسيين مقدّم على جميع الاعتبارات . ويرى بعض كبار السياسيين أن السياسة لا ترتكب فيها جرائم وإنما يقع السياسيون فى أخطاء ، وقد قال جيتى « رجل العمل فى جوهره لا ضمير له » والحياة فى نظر أمثال هؤلاء الرجال سيرة ناجحة لا رسالة مقدّسة .

ومن الأقوال المأثورة أن الأمانة خير سياسة، وأن الحق يعلو فى المدى المتطاول ، وأن دولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة، فهل هذا كلام يقال بين دفتى الكتب وخير لمن يعمل به ويأخذ بحرفيته أن يعتزل الناس ويتّخذ نفقاً فى الأرض أو سلّماً فى الجو إذا استطاع سبيلاً إلى ذلك ؟ قد يكون هذا القول من الإسراف فى التشاؤم ، والشكّ فى نبل الإنسان ، وضعف الثقة بالنفس البشرية ، ولكن من الواضح أن السياسة ليست مجالاً للقداسة ، وأن النجاح عند السياسيين مقدّم على كل شىء ، وأن الضرورات فى نظرهم تبيح المحظورات .

وقد خرج المنصور من أكنان الخمول وزوايا النسيان إلى ضواحى النباهة ومدارج العظمة ، ولم يرتكب عملاً من أعمال القسوة بغير مسوّغ ، والخوف الذى أدخله على نفوس الأندلسيين منع الثورات وقمع أهل الأندلس برغم شدّة ميلهم إلى العصيان والخروج على الدولة والاستهانة بالحكّام ، وكان سلوك المنصور فى المسائل التى لا تمسّ مصلحته ولا تعترض طموحه لا غبار عليه ،

بل كان يتشدّد فى تحرّى العدالة ، وقد فرضت عليه الضرورة السياسية من ناحية وغريزة المحافظة على الذات من ناحية أخرى ألواناً من القسوة والشدّة والقمع استلزمها ضغط الظروف ، فقد ولد فى أسرة ليست من أسر الأندلس المعدودة ، ووصل إلى أسمى مكانة بمتانة أخلاقه ومثابرته ودهائه ، ولكنّه كان يلقى عنتاً فى المحافظة على تلك المكانة ، فأصدقاؤه القدماء كانوا ينفسون عليه رقيّه السريع وينتقصون قدرته ، وكان الخصيان الصقالبة يمقتونه ويتربّصون به الدوائر لأنه سلبهم نفوذهم وجاههم وحطّهم عن منزلتهم الرفيعة وكانت الطبقة الارستقراطية ترى فيه منافساً محدث النعمة طريف المجد ، وكان الفقهاء يزوّرون عنه وينسبون إليه مخالفة الدين ، وكان الأمويون يكرهونه ويلعنون أيامه ويضمرون له السوء ويرمونه بأنه وصولى مغامر ، فكان مضطرّاً إلى اصطناع الشدّة والإرهاب صوناً لدنياه العريضة ، وطلباً للسلامة والأمن .

ويقتضينا الإنصاف أن نقول إن المنصور كان فى غير ما يتّصل بسياسة دولته وتثبيت سلطانه صديقاً وفيّاً ورجلاً نجداً مخلصاً مقدّراً لواجبه وتبعته مؤثّراً للعدل ، وأخباره فى ذلك كثيرة ، وقف عليه رجل من العامّة بمجلسه فنادى « ياناصر الحق إن لى مظلمة عند ذلك الوصيف الذى على رأسك وأشار إلى الفتى صاحب الدَّرَقَة ، وكان له فضل محل عنده ثم قال « وقد دعوته إلى الحاكم فلم يأت » فقال له المنصور « أو عبد الرحمن بن الفُطَيْس بهذا العجز

والمهانة ، وكنا نظنّه أمضى من ذلك ؟ اذكر مظلمتك ياهذا » فذكر الرجل معاملة كانت جارية بينهما فقطعها من غير نصف فقال المنصور « ما أعظم بليّتنا بهذه الحاشية » ثم نظر إلى الصقلبي وقد ذهل عقله فقال له « ادفع الدَّرقة إلى فلان وانزل صاغراً وساو خصمك فى مقامه حتى يرفعك الحق أو يضعك » ففعل ومثل بين يديه ثم قال لصاحب شرطته الخاص به «خذ بيد هذا الفاسق الظالم وقدّمه مع خصمه إلى صاحب المظالم لينفّذ عليه حكمه بأغلظ ما يوجبه الحق من سجن أو غيره » ففعل ذلك ، وعاد إليه الرجل شاكراً ، فقال له المنصور وقد انتصف « أنت اذهب لسبيلك و بقى انتصافى أنا ممن تهاون بمنزلتى » ، فتناول الصقلبي بأنواع من المذلة وأبعده عن الخدمة .

ومن ذلك قصة فتاه الكبير المعروف بالبوْرَقى مع التاجر المغربى فإنهما تنازعا فى خصومة توجّهت منها اليمين على الفتى المذكور وهو يومئذ أكبر خدم المنصور ، و إليه أمر داره وحرمه فدافع الحاكم ، وظنّ أن جاهه يمنع من تحليفه اليمين ، فصرخ التاجر بالمنصور فى طريقه إلى الجامع متظلّماً من الفتى فوكل به فى الوقت من حمله إلى الحاكم فأنصفه منه وسخط عليه المنصور وقبض عنه نعمته ونفاه .

ومن ذلك قصة محمد فصّاد المنصور وخادمه وأمينه على نفسه، فإن المنصور احتاجه يومًا إلى الفصد وكان كثير التعهّد له ، فأنفذ رسوله إلى محمّد ، فألفاه الرسول محبوساً فى سجن القاضى محمد بن زرب لحيف ظهر منه على امرأته ،

قدّر أن سبيله من الخدمة يحميه من العقوبة ، فلما عاد الرسول إلى المنصور بقصّته أمر باخراجه من السجن مع رقيب من رقباء السجن يلزمه إلى أن يفرغ من عمله عنده ، ثم يردّه إلى محبسه ، ففعل ذلك على ما رسمه ، وذهب الفاصد إلى شكوى ما ناله ، فقطع عليه المنصور وقال له « يا محمد إنه القاضى وهو فى عدله ، ولو أخذنى بالحق ما أطقت الامتناع منه ، عد إلى محبسك ، واعترف بالحق فهو الذى يطلقك » ، فانكسر الحاجم ، وزالت عنه ريح العناية ، و بلغت قصّته القاضى فصالحه مع زوجته ، وزاد القاضى شدّة فى أحكامه .

وكان المنصور يراجع نفسه و يحاسب ضميره فى أمور كثيرة ، وفى بعض المواقف كان ينتصر ضميره و يتغلّب على إصراره وعناده ، عرض عليه مرة اسم أحد خدمه فى جملة من طال سجنه ــ وكان شديد الحقد عليه ــ فوقّع على اسمه بأن لا سبيل إلى إطلاقه حتى يلحق بأمّه الهاوية ، وعرّف الرجل بتوقيعه فاهتمّ واغتمّ وأجهد نفسه فى الدعاء والمناجاة ، فأرق المنصور إثر ذلك واستدعى النوم فلم يقدر عليه لأنه على ما يظهر لم يكن مقتنعاً بينه و بين نفسه بعدل تلك العقوبة الشديدة ، وكان يأتيه عند تنويمه آت كريه الشخص عنيف الأخذ يأمره باطلاق الرجل و يتوعّده على حبسه ، فاستدفع شأنه مراراً إلى أن علم أنه نذير من ربه فانقاد لأمره ، ودعا بالدواة فى مرقده فكتب باطلاقه وقال فى كتابه « هذا طليق الله على رغم أنف ابن أبى عامر » وظاهر هنا أن الصراع

كان عنيفاً فى ساحة نفسه بين حب الانتقام والتنكيل والميل إلى إيثار العدل والإنصاف .

وقد وصل المنصور إلى ذروة القوّة وقمّة المجد فلم يسىء استعمال القوة ولم يطغه المجد ، وذوو الطبائع القوية يزيدهم الوصول إلى المجد قوّة لأن القوّة هى عنصرهم الأصيل ، ولكن الضعفاء يفسدهم إقبال الحظ ، ويطغيهم الانتصار ، ويعلمهم الغرور والاختيال ، لأنهم يعتقدون أن عطايا الحظ دليل قدرتهم ، ولقد وقف المنصور عبقريته على تثقيف سلطانه ، وشدّ أركانه ، فكان إذا قدم من غزوة لا يحلّ عن نفسه حتى يدعو صاحب الخيل فيعلم ما مات منها وما عاش وصاحب الأبنية لما وهى من أسواره ومبانيه وقصوره ودوره ، وكان يدرّب فطنته ويشحذ ذكاءه فى معالجة بعض المشكلات التى تكاد تكون خارجة عن اختصاصه ، من ذلك قصة الجوهرى التاجر الذى قصده من المشرق من مدينة عدن بجوهر كثير ، فأخذ المنصور من ذلك ما استحسنه ودفع إلى التاجر الجوهرى صرّته ، وكانت قطعة يمانية ، فأخذ التاجر فى انصرافه طريق الرّملة على شط النهر ، فلما توسّطها واليوم قائظ وعرقه منصبّ ، دعته نفسه إلى التبرّد فى النهر، فوضع ثيابه وتلك الصرّة على الشط ، فمرّت حِدَأة فاختطفت الصرّة تحسبها لحماً ، وصاعدت فى الأفق بها ذاهبة فقطعت الأفق الذى تنظر إليه عين التاجر ، فقامت قيامته وعلم أنه لا يقدر أن يستدفع ذلك بحيلة ، فأسرّ الحزن فى نفسه ، ولحقه لأجل ذلك علة اضطرب فيها ، وحضر الدفع إلى

التجّار ، فحضر الرجل لذلك بنفسه ، فاستبان للمنصور ما بالرجل من المهانة والكآبة وفقد ما كان عنده من النشاط وشدّة العارضة ، فسأله المنصور عن شأنه ، فأعلمه بقصته ، فقال له « هلا أتيت إلينا بِحِدْثَان وقوع الأمر ، فكنّا نستظهر على الحيلة فهل هديت إلى الناحية التى أخذ الطائر إليها ؟ » فقال « مر مشرِّقاً على سمت هذا الجبل الذى يلى قصرك – يَعْنِي الرّملة – فدعا المنصور شرطيه الخاص به فقال له « جئنى بمشيخة أهل الرّملة الساعة » فمضى وجاء بهم سريعاً ، فأمرهم بالبحث عمن غيّر حال الإقلال منهم سريعاً ، وانتقل عن الإضاقة دون تدريج ، فتناظروا فى ذلك ، ثم قالوا « يا مولانا ما نعلم إلا رجلاً من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده بأيديهم ، و يتناولون السبق بأقدامهم عجزاً عن شراء دابّة ، فابتاع اليوم دابّة وا كتسى هو وولده كسوة متوسطة ، فأمر باحضاره من الغد ، وأمر التاجر بالغدوّ إلى الباب فحضر الرجل بعينه بين يدى المنصور ، فاستدناه والتاجر حاضر وقال له « سبب ضاع منّا وسقط إليك ، ما فعلت به ؟ » قال « هو ذا يا مولاى ، وضرب بيده إلى حُجْزَة سراويله ، فأخرج الصرّة بعينها ، فصاح التاجر طرباً ، وكاد يطير فرحاً ، فقال له المنصور « صف لى حديثها » فقال « بينا أنا أعمل فى جِنانى تحت نخلة إذ سقطت أمامى ، فأخذتها وراقنى منظرها ، فقلت إن الطائر اختلسها من قصرك لقرب الجوار ، فاجتزت بها ، ودعتنى فاقتى إلى أخذ عشرة مثاقيل عيُوناً كانت معها مصرورة ، وقلت ، أقلّ ما يكون فى كرم مولاى أن يسمح لى بها ، فأعجب

المنصور ما كان منه ، وقال للتاجر خذ صرّتك وانظرها ، وأصدقنى عن عددها ففعل وقال « وحق رأسك يا مولاى ما ضاع منها شىء سوى الدنانير التى ذكرها ، وقد وهبتها له » ، فقال له المنصور « نحن أولى بذلك منك ، ولا ننغّص عليك فرحك ، ولولا جمعه بين الإصرار والإقرار لكان ثوابه موفوراً عليه ، ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير عوضاً من دنانيره وللجَنَّانى بعشرة دنانير ثواباً لتأنّيه عن فساد ما وقع بيده ، وقال « لو بدأنا بالاعتراف قبل البحث لأوسعناه جزاءً » ، فأخذ التاجر فى الثناء على المنصور ، وقد عاوده نشاطه وقال « والله لأُبثّنّ فى الأقطار عظيم ملكك ولأبينن أنك تملك طير أعمالك كما تملك أنفسها فلا تعتصم منك ولا تمتنع ، ولا تؤذى جارك » فضحك المنصور وقال « أقصد فى قولك يغفر الله لك » . ولقد رأت عين المنصور الضوء أول ما رأت فى منزل قروى صغير ، ولكى يحقق طموحه لم يجد مندوحة عن تذليل عقبات كثيرة لم يحفل فى مغالبتها بشرعية الأساليب ، ويجمل بنا قبل أن نشتدّ فى لومه ، ونقسو فى الحكم عليه ، أن نتذكّر قول المؤرخ النقادة العظيم توماس كارلايل: « إذا أبصرت فى الميناء سفينة تغالب الموج ، وتشقّ العباب ، وهى ممزقة القلوع ، محطمة الصوارى ، مقطّعة الأمراس ، فلا تسرع إلى لوم ربّانها ، وسل أعادت السفينة من نزهة بحرية فى نواحى المرفأ ، أم قفلت من رحلة شاقّة طويلة حول الكرة الأرضية » ؟ ولم تكن رحلة المنصور هيّنة ليّنة فى ريح رُخاء ، وبحر ذلول ، وطريق مسلوك ، وإنما كانت رحلة هذا

« الأوديسيوس » فى بحار زخّارة ، و بين تيّارات جارفة ، وصخور عُبْل .
ولقد ظلّت ذكرى هذا الرجل العظيم والبطل النجد تثير الحماسة فى نفوس مسلمى الأندلس حتى فى العهد الذى ضربت فيه عليهم الذلّة واستكانوا لعدوان الإفرنج ، فقد ذهب مرّة شجاع مولى المستعين بن هود إلى اذفونش أحد ملوك الإسبانيين فوجده فى مدينة سالم وقد نصب سريره على قبر المنصور بن أبى عامر وامرأته متكئة إلى جانبه فقال له « يا شجاع أماترانى قد ملكت بلاد المسلمين وجلست على قبر ملكهم » فأثارت هذه الكلمة نخوة شجاع وحملته الغيرة على أن قال « لو تنفّس صاحب هذا القبر وأنت عليه ما سمع منك ما يكره سماعه ولا استقرّ بك قرار » فهمّ به اذفونش فحالت امرأته بينه و بين شجاع وقالت له « صدقك فيما قال أيفخر مثلك بمثل هذا ؟ »

وهكذا كان المنصور يخلب و يفتن فى حياته وفى ذكراه بعد مماته .

فهرس



